نبيُّ اللَّه سليمان عليه السلام

قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥].

اللَّه سبحانه وتعالى آتى داود وسليمان عليهما السلام العلم، وهومنهج الدين، وعلَّم سليمان منطق الطير، وألان لداود الحديد، وآتى سليمان ملكاً لا ينبغى لأحد من بعده، ورغم كل هذه النعم لم يذكر اللَّه إلا النعمة التى يجب أن يفرح بها المؤمن وهى العلم.

وانظروا إلى داود وسليمان حينما حمدا اللَّه على فضله عليهما بالعلم حيث قالا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أى أن هناك من الناس من هو أفضل منا، وهذا تواضع الأنبياء والعلماء.

ثم يقول تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦]. ومعنى كلمة: ﴿وَوَرِثَ﴾ أى بقيت النبوة فيه بعد أبيه، و ﴿مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ هو لغة التفاهم بينها؛ لأن لكل خلق من خلق اللَّه لغة يتفاهم بها؛ قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨] والعلماء يعكفون فى العصر الحاضر على معرفة لغات الحيوانات، مثل: لغة النمل، والنحل، والسمك، فهذه الحيوانات تتفاهم فيما بينها تفاهماً غريزياً.

قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ الأنبياء لا تورث، ولكنه ورثه فى النبوة والدعوة إلى اللَّه وتطبيق منهجه.

ومعنى: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾، أى أننا ببشريتنا لو لم يعلمنا اللَّه لما فهمنا منطق الطير كسائر الناس، فالناس لا يفهمون منطق الطير، مع أن الطير له منطق. وعلماء اللغة يقولون: النطق خاص بالإنسان، وأما فى الطير والحيوانات الأخرى فيسمونه صوتاً، فهذا مواء القطة، ونباح الكلب، وخوار البقر، ونقيق الضفادع، وزئير الأسد.. إلخ.

❁❁❁

obeikandl.com

اللَّه سخر الريح لسليمان

قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨١] سليمان قد استفاد من تعليم اللَّه لأبيه داود، فأخذ هذه النعمة، وزوده اللَّه بنعم أخرى خاصة به، فأعطى له الريح العاصفة تسير بأمره، وينتقل بها من مكان إلى آخر فى الأرض - التى بارك اللَّه فيها من صحراء فلسطين حتى العراق - فكانت الريح تمثل مواصلات داخلية له فى مملكته.

وفى آية أخرى قال سبحانه وتعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦] هنا الريح رخاء ولينة وهناك الريح عاصفة، فالريح العاصفة تعطى سرعة، والريح اللينة تعطى راحة، فكأنها جمعت بين السرعة فى ﴿عَاصِفَةً﴾ وبين اللين والنعومة فى ﴿رُخَآءً﴾.

إذن.. جمع له الحق سبحانه وتعالى بين ما يعطيه السرعة إلى مراده، وبين ما يجعلها مريحة ناعمة هادئة لا تؤثر فى جسمه؛ لأن هذه السرعة قد تصيب الجسم بأضرار. ومعنى: ﴿بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ أى أنها أرض فيها زروع وثمار وخصب ونماء، كما أن فيها النبوة وآثار النبوة، فتسخير الريح لسليمان فى أنه يأمرها أن تهبَّ فى الاتجاه الذى يريده، فهى لا تهب إلا على مراده هو وبأمره هو، والريح مسخرة له كمواصلات داخلية وخارجية، الداخلية وهى التى تحمله داخل مملكته، أما الخارجية فتتمثل فى قول اللَّه تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢]. فهذه الريح للرحلات الخارجية خارج مملكته. وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨١]، أى عندنا العلم الكافى لترتيب الأمور وفق ما نشاء، بل ونجعلها تخرق القانون وتخالف طبيعتها.. هذا بالنسبة لتسخير الريح.

وهناك تسخير الشياطين أيضاً، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٢] الغوص: هو النزول إلى أعماق البحر، فالشياطين كانوا يغوصون فى البحر؛ ليخرجوا له كنوز البحر ونفائسه، ويعملون أعمالاً أخرى شاقة لايستطيع الإنسان أن يؤديها.

ولذلك يقول سبحانه وتعالى فى آية أخرى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]. وهذه الآية بينت قوله تعالى: ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الأنبياء: ٨٢] فهذا العمل فى صناعة المحاريب والتماثيل والجفان- أى القصعة التى يأكل الناس فيها

- وكلمة: ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾ تدل على أن هذه الجفان واسعة وكبيرة، تتسع لإطعام عشرات الرجال، والقدور الراسيات هى القدر الضخمة التى لا يمكن نقلها من مكانها؛ لأنها قدر ضخمة تكفى لإطعام المئات من الناس.

وقوله: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾؛ لأن الناس دائماً يخافون من الشياطين ويصيبهم الرعب منها؛ لذلك أخفى اللَّه هذه الشياطين بحيث إن الناس لا يرونهم وهم يعملون هذه الأعمال، ولا يحسون بهم، وقد بيَّن القرآن الكريم أن الجن المُسخرين لسليمان، كان هو وحده الذى يراهم ولا يراهم أحد غيره، ولذلك لم يشعروا بموته وهو يجلس متكئاً على عصاه، وظلوا يعملون بجد ظانين أنه يراقبهم فلما أكل السوس العصا، وانكسرت وسقط سليمان على الأرض؛ علمت الجن بموته، وهذا يدل على أن الجن لا يعلمون الغيب، قال سبحانه تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤].

❁❁❁

جنود سليمان عليه السلام

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧]، ما داموا حُشروا فمعنى ذلك أنهم جُمعوا من كل مكان.

معنى قوله: ﴿يُوزَعُونَ﴾ أى يمنعون، ويروى: إن اللَّه ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن. أى أن السلطان يمكنه أن يمنع الفساد بسلطته وقوته أكثر مما يمنعه الدعاة بخطبهم ومواعظهم؛ لأنهم يستبطئون عذاب اللَّه وعقابه لأنه آجل فى الآخرة، ويخشون عقاب السلطان؛ لأنه عاجل فى الدنيا ولذلك الأنبياء الملوك مثل داود وسليمان لم يعارضهم أحد؛ لأن السلطان والقوة كانا فى أيديهم.

إذن.. ﴿يُوزَعُونَ﴾ هنا أى يمنع من يذهب منهم للقاء سليمان حتى يأتى الباقون، ويحضر المتخلفون فلا يفوز أحد بلقائه دون غيره حتى يحدث توازن بين الرعية. ولذلك كان من صفاته ﷺ أنه كان إذا جلس فى مجلس توزعت نظراته وعيناه على كل الجالسين؛ حتى لا يعلم أحد أنه ينظر لأحد أكثر منه، فلا يتميز أحد على أحد، حتى فى نظرة النبى ﷺ، كما كان لا يُقرب منه إلا أهل الفضل، الذين يعلم أن تقربه لهم لايعطيهم بسط سلطة على الناس.

فكلمة ﴿يُوزَعُونَ﴾ أى يمنعون، فيمتنع السابق أن يسبق حتى يأتى اللاحق؛

ليكونوا سواسية فى الدخول على سليمان عليه السلام.

وفى آية أخرى يقول سليمان عليه السلام: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ [النمل: ١٩].

فهنا معنى ﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾ أى أعنّى على شكر نعمتك، ولما كان ﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾ معناها: امنعنى، فمعنى الآية إذن يكون: رب امنعنى عن الغفلة عن نعمتك لأظل شاكراً لك.

❁❁❁

فى وادى النمل

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨].

قول اللّه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾؛ يدل على أنهم جاءوا لهذا الوادى من أعلى الجبل، وهذا ما تفيده كلمة ﴿عَلَىٰ﴾.

والمعنى إنه لما مر سليمان بالوادى سمع تحذير النملة لقومها بأن يدخلوا مساكنهم؛ خشية أن يحطمهم سليمان وجنوده دون أن يشعروا بهم، وهذا يفيد أن هناك نملة كانت موكلة بمراقبة حركة المرور من وإلى وادى النمل وهذه مهمتها؛ لأن النمل أمة منظمة وكل فرد له مهمة.

وهذه المخلوقات أمم مثلنا لها نظام حياة، ولغة، ومعيشة، وتخطيط. إلخ، وصدق الحق سبحانه إذ يقول: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨].

الحق سبحانه سمى لغة النملة قولا؛ ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾؛ النملة التى قالت وحذرت النمل، أين رأت سليمان وجنوده ومتى اكتشفتهم؟! لابد أنها رأته قبل أن يأتى إلى وادى النمل؛ حتى تستطيع أن تحذرهم وتنبههم قبل وصوله إليهم؛ حتى لا يحطمهم هو وجنوده دون أن يشعر بهم لضآلة أجسامهم.

وقول اللّه تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ [النمل: ١٩]: يدل على أنه سمعها، فالنملة رأت قبل أن يوجد المرئى، وسليمان سمع قبل أن يصل إلى وادى النمل؛ سليمان عليه السلام تبسم ضاحكا، أى بدأ بالبسمة التى قد تصل إلى الضحك، وشعر بفضل اللّه الذى أنعم عليه هذه النعمة، وقال: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ

﴿ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]؛ أى يارب لا تجعلنى أنسى فضلك على؛ حتى أظل شاكراً حامدا لك؛ لأن هذا نعمة فوق ما أنعمت به على عامة الخلق، ونعمة فوق ما أنعمت به على من سبقنى من الأنبياء.

سليمان سمع قول النملة قبل أن يصل إلى وادى النمل، فكيف حدث ذلك؟ بعض العلماء يقولون: إن الريح نقلت له الصوت. ونحن نقول: إن هذا تفسير ميكانيكى، والمسألة ليست ميكانيكية، ولكنها عمل رب قادر على كل شىء؛ النملة لما قالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾، هذا يفيد أن لهم مجال معيشة يبحثون فيه عن رزقهم، ولهم مساكن يأوون إليها ويريحون فيها بعد جمع قوتهم - من فضلات الحلوى والطعام التى تقع على الأرض من الإنسان- فهذا المكان الذى فيه رزقهم يتجمع فيه النمل.

ومعنى ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾: الحطم هو الكسر؛ ولذلك يقول ربنا عز وجل: ﴿كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥﴾ [الهمزة].

سليمان ضحك بسبب ثلاثة أشياء:

أولا: لأنه سمعها عن بعد، والنملة عرفت أنه سليمان قبل أن تراه.

ثانيًا: لعدالة حكمها؛ لأنها قالت لقومها: إن سليمان ليس متجبرا حتى يحطمكم هو وجنوده، ولكنهم لن يروكم لدقة أجسامكم.

ثالثًا: لأنها شهدت بحق.

فهذه النملة رأت عن بعد، ونطقت بحق، وحكمت بعدل، وعلى ذلك فأى إنسان يرى نعمة من نعم اللَّه تطرأ عليه، يجب عليه أولا أن يحمد اللَّه عليها.

﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ فكأن الفضل والرحمة من اللَّه هما اللذان يفرح بهما الإنسان؛ لأنهما اللذان سيدخلانه فى عباد اللَّه الصالحين؛ ولذلك قال رسول اللَّه ﷺ: «لن يُدخِل أحدًا منكم عملهُ الجنة» قالوا: ولا أنت يا رسول اللَّه؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدنى اللَّه منه بفضلٍ ورحمة[1]». وذلك قول اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، فإياك أن تغتر أوتفرح بعملك ولكن افرح بفضل اللَّه وارج رحمته.

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [٥٦٧٣] ومسلم [٢٨١٦/ ٧١] واللفظ له عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه.

هدهد سليمان

يقول اللَّه تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ [النمل: ٢٠]؛ مادة فقد، الفاء، والقاف، والدال؛ إما أن تكون: فقد بمعنى ضاع، فتقول: فقدت الشيء؛ أي: ضاع مني، وإما تفقدته، فمعناه: أنه لم يضِع ولكنك تبحث عنه في مظانه، فالتفقد هو: بحث عن شيء في الأماكن التي تتوقعه فيها.

وقول اللَّه تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾: يدل على أن الرئيس، أو المهيمن على شيء لابد له من المتابعة، فساعة جلس في مجلس القضاء أو مجلس العلم أو أي مجلس كان؛ لابد وأن ينظر ليتفقد المجلس، والتفقد من سليمان عليه السلام يدل على المتابعة، وكان محتاجاً للهدهد، فبحث عنه فلم يجده؛ لأن سليمان كان يريد أن يقوم برحلة في الصحراء، والهدهد خبير في منابع المياه في الأرض، فهو يرى الماء في الأرض؛ ولذلك جعل اللَّه له منقاراً طويلاً؛ لأن ميزته أنه يأكل أي شيء على سطح الأرض، بل يأكل مما اختبأ تحت سطح الأرض.

لذلك لما تكلم عن بلقيس وقومها الذين كانوا يعبدون الشمس، استعجب من أمرهم وقال: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لأن رزقه من هذا الشيء المخبوء في الأرض.

وقول سليمان: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ ساعة يستفهم واحد عن شيء جوابه عند نفسه لا يكون هذا استفهاماً؛ لأنه يقول: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾، كأنه قد استبعد أولاً أن أحداً يتخلف عن مجلسه، فهو استفهم أولاً ثم تيقَّن أنه غائب، فقال: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ وما دام كان من الغائبين، لا بد له من الجزاء؛ لأن أي مخالفة لا تقابل بجزاء تثمر مخالفات متعددة.

والهدهد لما كان غيابه بدون إذن من سليمان، قال سليمان: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٢١]؛ هذا ليس جبروتاً من سليمان ولكنه حزم، ومع ذلك علق أمر العقوبة على حجة الهدهد، مما يستخلص منه أن المرءوس إن رأى خيراً يخدم فكرة رئيسه ويخدم الفكر العام، وكان الوقت ضيقًا لا ينتظر حتى يأخذ الإذن أو الأمر، بل ينصرف ثم يخبر رئيسه بها.

العلماء بحثوا في العذاب الشديد الذي توعد سليمان به الهدهد، فقالوا إن الهدهد يتميز ويتفاخر على باقي الطيور بأن شكله جميل: ألوانه المخططة، وعرفه، ومنقاره الطويل، والتاج الذي فوق رأسه، فقال سليمان: هذا الريش الذي يتخايل

به الهدهد سأنتفه، وألقيه إلى النمل والحشرات. أو أن العذاب الشديد للهدهد أن يرميه سليمان؛ ليعيش مع غير بنى جنسه من الطيور الأخرى، وهذا عذاب شديد له؛ لأنه لن يكون له إلف بحركتهم أو نظامهم أو التعامل معهم، فيكون غريباً طريداً بينهم، ومن العذاب أيضاً أن يجعله يخدم أقرانه من الهداهد الأخرى، أو يجمعه مع أضداده؛ لأن هناك بعض الطيور يضاد بعضها بعضاً، فساعة يرى طائر طائراً من أضداده يتشاجر معه، وتقوم بينهم معركة، ولذلك يقولون: «أضيق من السجن عِشرة الأضداد». ومعنى: ﴿فَقَالَ﴾ أى أنه كلَّم سليمان قبل أن ينهره، وقال له بكل ثقة: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾؛ انظروا سليمان الذى كان عنده كل هذا الملك الذى لم يؤته أحد، وحوله كل هذا الصولجان يقول له هدهد ضعيف: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ فكيف يجرؤ على أن يقول ذلك لسليمان النبى الملك؟ ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾: تعبير قرآنى جميل يسمونه فى اللغة الجناس، والجناس أن تأتى بلفظين متشابهين فى المبنى ومختلفين فى المعنى، والنبأ هو الخبر العجيب وليس الخبر العادى؛ يقول تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾ [النبأ].

فلا يقال: نبأ، إلا إذا كان الخبر هاماً وعجيباً. ومسألة بلقيس وعرشها وقومها الذين يسجدون للشمس خبر هام جداً، فلو قال: وجئتك من سبأ بخبر؛ لا يعنى بالمعنى المطلوب ولا يناسب أهمية الحدث.

ومعنى: ﴿أَحَطتُ﴾ الإحاطة معناها إدراك المعلوم من كل جوانبه، فالمحيط يحيط بالمركز إحاطة مستوية من كل نقطة بأنصاف الأقطار، وهى إحاطة تامة.

ولكن هل قول الهدهد لسليمان: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾؛ هل هذا نقص فى سليمان لأنه لا يعرفها؟ لا، بل هذا تكريم لسليمان؛ لأن اللَّه سخر له ناساً يخدمونه فى كل ناحية، وفرق بين أن تفعل أنت الشىء لذاتك، وبين أن يُفعل لك. فمعنى أن يُفعل لك فهذه سيادة أخرى وتكريم كبير، ولأجل أن يُعلمنا اللَّه سبحانه وتعالى أننا لا نكتم مواهب النَّابغين- ونعطى لهم مجالاً أن يقولوا رأيهم ويأخذوا فرصتهم ويبرزوا مواهبهم لأن هذه خدمة لك أنت أيها الرئيس أو المسئول؛ ولمصلحتك، ولأن سليمان لم يسأل الهدهد عن سبأ، فمعنى هذا أنها كانت معروفة أو سمعوا عنها، ولكنه لا يعرف التفاصيل التى عرفها الهدهد. ولكن ما هذا النبأ الخطير الذى عرفه الهدهد عن سبأ؟

قال تعالى موضحاً: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣].

﴿تَمْلِكُهُمْ﴾ أى: تحكمهم، ومعنى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ أى مما يؤتاه أقرانها من الملوك، وليس مثل الذى أوتيه سليمان عليه السلام؛ لأن هذا شىء آخر. والعرش هو مكان جلوس الملك وكان عادة يتمشى مع عظمة الملك.

والهدهد أخبر سليمان عليه السلام بقوله: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ هذا فيما يتعلق بالملك؛ لأن نبى اللَّه سليمان كان ملكاً نبياً، فذكر له الأشياء التى رآها وتتعلق بالملك؛ وفيما يتعلق بالعقيدة التى تهم سليمان - لأنه نبى- أخبره بقوله عن ملكة سبأ: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [النمل: ٢٤].

فكأن الهدهد يعرف قضية العقيدة وقضية الإيمان، وأن الخلق لا يجب ولا يصح أن يعبدوا إلا اللَّه! ولذلك يقول إنه وجدها وقومها يعبدون الشمس من دون اللَّه، ولماذا لا يعبدون اللَّه الذى يخرج الخبء فى الأرض؟ كيف لا يعبدون المنعم عليهم بكل النعم؟!

إذن.. هنا نعلم سر الحق فى قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

انظروا إلى كلام الهدهد وعقيدته ووعظه الجميل فى قوله تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤].

والذى أحزن الهدهد أنهم يسجدون للشمس من دون اللَّه؛ ولذلك قال مستنكراً فعلهم: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

والهدهد خلال طيرانه فى قصر بلقيس رأى كوة أو طاقة تدخل منها الشمس، وهى مبنية بشكل هندسى بحيث تدخل منها الشمس كل يوم بعد شروقها، فتتنبه بلقيس وتستقبلها بالسجود؛ ولذلك حينما ذهب الهدهد بكتاب سليمان إليهم، وقف فى الطاقة وسدها بجناحيه، فانتظرت بلقيس دخول شعاع الشمس وارتفاعها، فصعدت إلى الطاقة لترى ما بها، فطار الهدهد وألقى كتاب سليمان عليه السلام، فأخذته بلقيس.

إذن.. الهدهد يستغرب أن يسجد هؤلاء القوم للشمس، ولا يسجدون للَّه الخالق الرازق الذى يخرج لهم رزقهم، ويعلم سرهم وجهرهم.

ثم يقول سبحانه: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٦].

فاللَّه هو المستحق للعبادة وحده، وهو رب العرش العظيم، وقلنا إن عظمة عرش بلقيس، وعروش ملوك الدنيا كلها هى على قدر عظمة البشر وقدرتهم، ولكن عظمة عرش اللَّه على قدر عظمته وقدرته سبحانه.

سليمان لم يأخذ كلام الهدهد حجة مسلمة، ولكنه أراد أن يتأكد فقال: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النمل: ٢٧].

النظر محل العين، والصدق والكذب لا يعرفان بالعين، ولكن كلمة النظر هنا انتقلت من العين إلى معنى العلم بالحجة؛ ولذلك فى التوقيع على كثير من الأوراق يقول «نُظر» والناس يقولون هذه مسألة فيها نظر، أى أنها لا تمر مرور الكرام، بل لابد من بحثها والتأكد منها.

ولذلك قال سليمان: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، مع أن المقابل لكلمة صدقت هو كذبت، ولكن سليمان لم يقل للهدهد سننظر أصدقت أم كذبت، ولكن قال: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ وهذا لطف وترفق من الحاكم برعيته؛ لأن معنى: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أى حتى إن كذبت فأنت لم تكذب وحدك، ولكنك ستكون ضمن كثير من الكاذبين؛ لأن كثيراً من الناس يكذبون، أو أنه من الكاذبين ميلاً لهم أو قريباً لهم، وهذا يدل على أن إلهامات سليمان كنبى جعلته يعرف أنه صادق، ولكنه أراد أن يتأكد؛ حتى لا يجامل جندياً من جنوده.

ثم يقول بعد ذلك: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل: ٢٨] هذا معناه أن سليمان فكر فى الأمر، وقال: نكتب لها كتاباً ونرسله مع الهدهد؛ حتى يتأكد من الرد ويعرف أبعاد الموقف.

ومعنى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أى أبعد عنهم قليلاً وانظر ماذا يفعلون؛ لأنهم سيراجعون بعضهم البعض؛ لأن معنى: ﴿يَرْجِعُونَ﴾ أى يراجع بعضهم بعضاً.

❁❁❁

رسالة سليمان إلى ملكة سبأ

يقول تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٢٩]، الهدهد أخذ الكتاب وطار إلى سبأ، وذهب إلى بلقيس، وألقى إليها الكتاب، فلما قرأته: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ ولكن القرآن لم يذكر هذا كله؛ للدلالة على أن أوامر سليمان عليه السلام أوامر محوطة بالتنفيذ العاجل؛ ولذلك وصلت إجابة بلقيس فى الكلام الذى أمر به الهدهد مباشرة، دون ذكر لما حدث من الهدهد بعد صدور الأمر إليه، وكأن

obeikandl.com

الهدهد بعد صدور الأمر إليه نفَّذ الأمر بمنتهى السرعة، فوجدنا كلام بلقيس إلى قومها بعد أن تلقت كتاب سليمان عليه السلام. والملأ هم أعيان القوم وأشرافهم والمستشارون عند الملكة- بلقيس- ووصفت كتاب سليمان بأنه: ﴿كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ فهل كانت تسمع عن سليمان؟ أم لأن الخطاب بهرها بخطه الجميل وورقه الراقى وختمه الغريب.

وبعد ذلك قالت: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [النمل].

وهذا يدل على أنها كانت تعرف حكاية سليمان وأنه ملك ونبى.. إلخ، وانظروا إلى كتاب سليمان وإيجازه الشديد حيث يقول: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ. أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾؛ فنَصّ الخطاب عبارة عن برقية موجزة كلمة ﴿تَعْلُوا۟﴾ أى: تتغطرسون وتظنون أنفسكم ملوكاً، وتزهون بما عندكم من ملك ولا تستجيبون لدعوتى، فإياكم وهذا التعالى والتكبر؛ مثلما نقول: «هى كلمة واحدة». بلقيس حينما ألقى إليها الخطاب وقرأته، جمعت الملأ وقالت لهم: لقد وصلنى كتاب من سليمان ونصه كذا وكذا، وبعد ذلك طلبت مشورتهم وأن يشيروا عليها بما تفعل فقالت: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ [النمل: ٣٢].

معنى: ﴿أَفْتُونِى﴾ أى: أعطونى قوة فى الحكم الذى تصدرونه، فهى سألتهم أن يفتوها فى أمرها، مع أن الأمر ليس أمرها وحدها، ولكنه أمرهم جميعاً، ولكن المقصود بقولها أن هذا الأمر قبل أن يخدش الرعية سيخدشها هى أولاً.

وقولها: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ أى لا أبت فى أمر ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ أى تحضرون عندى، وهذا يدل على أنها رغم مالها من سيطرة وهيمنة وسلطان، إلا أنها شاورت الملأ وأرادت أن تسمع رأيهم فى هذا الأمر.

قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: ٣٣].

أى نحن أصحاب قوة وعندنا شجاعة وعندنا بأس، وعددنا كبير وعندنا عدد والآت وجيش قوى، وهذه كلها مظاهر قوة، فإن كنت تريدين الدخول مع سليمان فى حرب فنحن جاهزون، ونحن لا نقول هذا لندفعك إلى الحرب، ولكن الأمر والرأى الأخير لك.

ولكن المرأة كانت عاقلة فلم تغتر بالقوة، وحذرت قومها من دمار الحرب وآثارها، فردت عليهم بقول الله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤].

لأن الذى جاء ليأخذ الملك يريد أن يأخذ المالكين، وينهب كل ماعندهم؛ لأنه ساعة يصل إلى مكان القوم لا يضمن أن ينتصر عليهم، فيخرب ما يستطيع تخريبه من ممتلكاتهم، ولا يحافظ على شىء إلا بعد أن يضمن استقرار الأمور له.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۖ﴾ كلام صحيح؛ لأنك إذا نظرت إلى أى حاكم يستولى على الحكم بعد حاكم آخر، أو أى نظام يخلف نظاماً فى الحكم، تجد الانتقام يكون من الحكام السابقين، وإلصاق شتى التهم بهم من فساد وغيره؛ لأن الحكم الجديد قام على أنقاضهم، وبين النظامين لدد وخصومة.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ وهذا الكلام من اللَّه تعالى تأييداً لكلام بلقيس، فهى قالت رأيها والحق سبحانه وتعالى أيدها فيه، أى أنها صادقة فى هذا، مما يدل على أن الحق سبحانه وتعالى - رب الخلق أجمعين - إذا سمع من عبد من عبيده كلمة حق يؤيده فيها، كما ترك الملأ القرار الأخير للملكة؛ لتفعل ما تراه مناسباً، بدأ عقلها وفطنتها يعملان، فقالت: إن كان ملكاً سيطمع فى خيرنا، وإن كان نبياً فلن يأبه بهذا الخير، فأنا سأرسل إليه بهدية.

هذه الهدية تناسب سليمان وبلقيس معاً، فهو ملك وهى ملكة، فلابد أن تكون الهدية ثمينة جداً؛ حتى تأخذ بلب سليمان، وحتى تثبت له أنها على جانب كبير من الثراء والغنى والترف، فقالت لقومها: أنا سأرسل إليه بهدية، فإن كان من أهل الملك والدنيا سيقبل الهدية، فنعرف أنه يريد بعض الخراج والمال، وإن رد الهدية فهو نبى لا يطمع فى شىء مما فى أيدينا؛ قال تعالى على لسانها: ﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٥].

أى سنرى كيف يقابلهم وماذا سيقول لهم؟ وهذا رأى جميل منها، ودليل على حصافتها وذكائها، مما جعل القوم يفوضونها فى تسيير أمور مملكتهم. و ﴿ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ هم الذين أرسلتهم بالهدية إلى سليمان عليه السلام.

❁❁❁

الله أعطى سليمان سرًا من علم الكتاب

ثم يقول اللَّه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾ [النمل: ٣٦].

أى: لما جاء الرسول سليمان بالهدية، قال له سليمان: لست بحاجة إلى مالكم؛ لأن اللَّه أعطانى خيراً مما عندكم، وقوله لهم: ﴿بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾

يصح أن يكون معنى قوله أنكم أناس تفرحون بأنكم قدمتم هدية لى لتأسرونى بها، أو أن معناه أنهم يفرحون حين تأتيهم هدية من أحد، فكلاهما صحيح، أو أنا رددت الهدية وسترجع لكم وستفرحون برجوعها؛ هذه ثلاث معان، فأنتم بهدية منكم لى تفرحون حين تأتيكم هدية، أو أننى حين أرد الهدية لكم ستفرحون برجوعها إليكم.

ثم قال لرسول بلقيس فى لهجة حاسمة: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٧].

كلامه هنا يكشف كلامها الذى قالته لقومها؛ فهى قد قالت: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾، فكأنه من منطلق النبوة يرد عليها وعلى كلامها بالحرف.

ومعنى: ﴿لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا﴾ القبل: هو المقابل، أى لا يستطيع مقابلة هذا الأمر أو مواجهته، أو أنهم أضعف من أن يواجهوا هذا الأمر.

ومعنى: ﴿أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أى يخرجهم من الملك ﴿أَذِلَّةً﴾ لأنهم كانوا ملوكاً، وسلب منهم الملك فصاروا أذلة، والصغار يكون بالأسر أو القتل.

ثم التفت سليمان حوله وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٨].

هذه أيضاً من إلهامات النبوة، فكأن اللّه أعلمه أن القوم بعد أن رد إليهم هديتهم، سيأتونه مسلمين طائعين ولن يحاربوه، فكأنه قد علم أنهم سيأتون إليه، فأراد أن يرسل من يذهب إلى سبأ، ويأتيه بعرش بلقيس قبل أن يصل القوم إليه، ولأن هذا الأمر صعب التحقيق ويتطلب قدرات خاصة.

وقيل إن الذى تكلم عفريت من الجن، قال: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل: ٣٩].

وقوله: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ﴾ هذه كلمة مجملة؛ لأن مقام سليمان فى مجلسه بينهم للحكم والعلم ومدارسة الأمور، مقام طويل قد يستمر ساعات، والذى يحدد هذا المقام مدة الإقامة التى كان يجلسها معهم، من أجل هذه الأمور، ومعنى هذا أن العفريت سيأتيه بعرش بلقيس قبل أن يترك مجلسه هذا، أى أنه لن يتأخر به إلى جلسة أخرى.

هنا القرآن لم يخبرنا أن أحداً آخر تكلم فى هذا الموضوع إلا بالوصف حيث

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠].

أنت لو حسبت المدة التى يستغرقها هذا الكلام ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ تجد أن طرفك ارتد خلالها مرتين أو ثلاثا، فالعفريت من الجن طلب إعطاءه مدة من الوقت، هى مدة بقاء سليمان فى مجلسه، وليكن ساعة أو ساعتين أو أكثر، لكن أن يأتى به قبل أن يرتد إليه طرفه، فهذه سرعة خارقة؛ لأن الطرف يرتد بسرعة، ولذلك لم يقل القرآن فذهب الذى عنده علم من الكتاب فجاء بالعرش، ولكن جاء بالخبر مباشرة فى قول اللّه تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾، وهذا دليل على السرعة الفائقة.

بعض العلماء قالوا: إن هذا الرجل هو آصف بن برخيا، وكان رجلاً صالحاً أعطاه اللّه من أسرار قوته.

وآخرون قالوا: الذى عنده علم من الكتاب هو سليمان نفسه، فكأن العفريت لما قال له: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ قال له هو: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾.

فهو إذن سليمان، لماذا؟ قالوا: لأنه لو كان هذا الرجل واحدًا غير سليمان، فمعنى هذا أن له تفوقاً فى معرفة الكتاب قبل سليمان.

ورد بعض العلماء على ذلك بقولهم: إن هذه عظمة لسليمان؛ لأنه فوق من يعرف هذا العلم، والمزايا لا تقتضى إلا فضيلة؛ لأن هذا الرجل مع ما عنده من علم بأسرار الكون سخره اللّه لخدمة سليمان.

وليس بالضرورة أن يكون الرجل العظيم عارفاً بكل شىء، فلا يمكن أن نطلب من الملك أن يكون ماهراً فى بعض ما يجيده الصبية فى الصناعات اليدوية مثلاً.

فمن عظمة سليمان أن اللّه سخر له كل هؤلاء.

قال اللّه سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

وما دام سليمان قال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ فهذا يدل على شيئين لا ثالث لهما: إما أن اللّه سخر له أحدًا فجاءه بالعرش، أو أن اللّه أعطاه علماً من الكتاب فجاء به، وإن كانت هذه أو تلك ففضل اللّه عليه بإعطائه هذا العلم له أو لأحد من أتباعه.

ومعنى ﴿لِيَبْلُوَنِىٓ﴾: الابتلاء هو الاختبار، والاختبار ليس مذموماً لذاته، ولكنه يذم لنتيجته فالذى ينجح فيه يكون سعيدا، وإن فشل يكون حزيناً، ولذلك سليمان

ذكر النتيجتين معاً فقال: ﴿لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ فالشكر معناه: أنه ذكر المنعم ولم يلهه جمال النعمة عن جلال الواهب، وأما كفر النعمة: أن يقول الإنسان هذا من ذكائى وجهدى وقوله تعالى: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ أى أن اللَّه لا يحتاج إلى شكرنا، فشكرك لا يزيد فى صفات اللَّه صفة كمال.

كذلك الذى يكفر النعمة ولا يشكر اللَّه عليها فإن اللَّه ﴿غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ أى غنى عن الشكر، وكريم يعطى بغير حساب.

❁❁❁

سليمان يختبر ذكاء بلقيس

ولما جاء العرش واستقر عند سليمان أمر بنصبه وتجهيزه؛ لأن بلقيس قادمة إليه فى الطريق، وهو يريد أن يختبرها اختباراً عقلياً واختباراً إيمانياً، فأمر بأن ينكِّروا عرشها، فقال لهم: ﴿نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٤١].

كلمة: ﴿نَكِّرُوا۟﴾ عكس عَرِّفوا، فعرشها جاء على هيئته كما كان فى سبأ، فلو أنها جاءت ورأته كما هو ستعرفه بسهولة، ولا يعرف سليمان ذكاءها فى الجواب، فأمرهم أن ينكروا لها العرش، بأن يغيروا بعض معالمه.

وقوله: ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إن كان المقصود به الهداية الإيمانية فهو أن تهتدى إلى الإسلام، وإن كان عقلياً بأن تهتدى إلى الجواب الصحيح. وحينما سألها حاول أن يعمى عليها فى السؤال فقال لها: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾. [النمل: ٤٢] فكأنه يقول لها: إن هذا ليس عرشك، ولكنه قال: هل عرشك مثل هذا؟ فهو يريد أن يختبرها فصعب عليها السؤال فماذا قالت؟ نظرت إلى العرش فوجدته مثل عرشها، ولكن التنكير الذى حدث له يدل على أنه ليس عرشها، فجاءت بجواب يحتمل الحالتين معاً فماذا قالت؟

قالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ فعرف سليمان من هذه الإجابة أنها ذكية وحصيفة وعاقلة. هذا بالنسبة لهداية الإيمان. فهى لكى تعلم أنها تركت عرشها هناك فى بلادها، وجاءت إلى سليمان، فكيف جاء سليمان بالعرش بهذه السرعة مع أنها تركته خلفها؟! فلا بد أن هذه قدرة فوق مستوى البشر.

وقول سليمان: ﴿نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ﴾ أى أتهتدى إلى جواب يجمع الأمرين فى المُنكر - وهو عرشها - أو تهتدى إلى أن الذى صنع ذلك إنما يكون

مؤيداً من اللَّه بأسرار الكتاب؛ فنقل العرش بهذه السرعة فتؤمن.

وقول اللَّه تعالى: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ إن كان هذا الكلام تكملة كلام بلقيس، فمعناه أنها أوتيت العلم قبل هذه الحادثة، وعلمت أنه نبى خاصة بعد أن رد الهدية الثمينة، وقال لهم: ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾. إلى آخر هذه المواقف، فكأنها تقول له: نحن عرفنا قبل هذه الحادثة أنك نبى وأسلمنا. أو أن الكلام كلام سليمان عليه السلام.

❁❁❁

بلقيس أسلمت مع سليمان للَّه رب العالمين

ثم يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [النمل: ٤٣]. أى أن سليمان بما صنع منْ أحداثٍ صدها عما كانت تعبد من دون اللَّه؛ لأنها كانت من قوم كافرين.

وقوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ﴾ [النمل: ٤٤] الصرح إما أن يكون القصر المشيد، وإما أن يكون البهو الكبير الذى يجلس فيه الملك، وإما أن يكون مثل إيوان الأكاسرة مثلاً، لما جاءت لتدخل الصرح وجدت أمامها ماء فيه سمك، فظنت ذلك ماء يريد سليمان أن يغرقها فيه، فرفعت ثيابها وكشفت عن ساقيها، فمعنى ذلك أنها فهمت أن هذا ماء؛ لأن سليمان كان قد بناه من زجاج مثل الكريستال، ووضع تحته ماء وأسماكاً فهى ظنته ماء فشمرت ثوبها؛ حتى لا يبتل فقال سليمان: ادخلى فهذا صرح ممهد من الزجاج، فماذا كان ردها؟ ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤] ظلمت نفسها فى ماذا؟ الكفر أولاً.

إذن.. فليست هى التى قالت: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ أو أنها لم تنطق بالكلمة نطقاً صريحاً، إلا بعد أن دخلت الصرح، أو أنها ظلمت نفسها فى أنها اتهمت سليمان بأنه يريد أن يغرقها فى الماء، حينما قال لها: ﴿ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ﴾. ومعنى: ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ أى ظنته لجة ماء، وكونها كشفت عن ساقيها، هذه عملية قسرية[1] لكل إنسان قد يُعَرِّضُ نفسه للسير فى الماء، فأنت حين تسير فى الطريق، أو فى الشارع، وتجد فيه ماء ترفع طرف ثوبك؛ حتى لا يصيبه بلل، بعض

---

(١) قسرية: قسر فلانا قسراً أى: قهره على كره. المعجم الوسيط [٢/ ٧٣٣].

الإسرائيليات الداخلة فى كتب التفسير تزعم أن سليمان عمل هذه العملية؛ حتى تكشف بلقيس عن ساقيها ليراها؛ لأنه بلغه أنها مشعرة الساقين، وهذا كذب فلا يليق أن يقال هذا عن نبى من أنبياء اللَّه صلوات اللَّه عليهم أجمعين.

❁❁❁

الحرث الذى حكم فيه داود وسليمان

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنبياء].

كلمة: ﴿يَحْكُمَانِ﴾ تدل على أن هناك خصومة فى قضية الحرث. والحرث هو إثارة تربة الأرض مثلما يحرث الفلاح الأرض، سمَّى ربُّنا الزرع والثمر والحدائق بالحرث قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

فمعنى: ﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ﴾ أى يهلك ما نشأ من الحرث من زروع وثمار وفواكه، فيسمى الزروع حرثاً مع أن الحرث هو إعداد الأرض للزرع، وهذا يوضح لنا أنه لا يمكن زرع إلا بحرث.

وقصة الحرث التى حكم فيها داود وسليمان عليهما السلام، أن رجلاً عنده زرع ورجل عنده غنم، فراعى الغنم غفل عن غنمه فهربت إلى الزرع وأكلته. صاحب الزرع اشتكى لنبى اللَّه داود، وداود لأول وهلة قال لصاحب الغنم: أعط الغنم لصاحب الأرض وانصرف. فى هذا الوقت كان عمر سليمان أحد عشر عاماً، فلما خرج الراعى وصاحب الأرض من عند داود قال لهما: ماذا قضى أبى؟ قالا له: قضى بأن يأخذ صاحب الأرض الغنم.

وتأويل ذلك: ربما وجد داود أن قيمة الزرع الذى أكلته الغنم، يساوى قيمة الغنم، فحكم هذا الحكم.

لما قص الرجلان قصتهما على سليمان لم يقل هذا ظلم أو جور، ولكن قال: هناك حل أرفق.. فلما قال هذا الكلام وبلغ داود أرسل إليه، وقال له: ما هو الأرفق الذى تراه فى هذه القضية؟ قال له: نعطى الغنم لصاحب الزرع، فيستفيد بلبنها وأصوافها، ونترك صاحب الغنم يزرع الأرض حتى تثمر، وتصبح كما كانت قبل اعتداء الغنم عليها، وعندئذ يأخذ صاحب الغنم غنمه، ويأخذ صاحب الأرض أرضه.

فربنا هو الذى فهَّم حل هذه المسألة لسليمان، وهذا ليس طعناً فى داود؛ لأن اللَّه آتى كل واحد منهما حكماً وعلما.

❁❁❁

السحر.. ومملكة سليمان

قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

ولنا أن نلحظ أن هذه الآية قد نزلت بعد قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١].

وهكذا يتضح لنا أن بعضاً من بنى إسرائيل قد ترك كتاب اللَّه المصدق لما معهم من التوراة، ولم يقفوا عند الترك لآيات الحق، بل اتبعوا ما جاء به الباطل.

إذن.. فالكتاب الذى كان يجب أن يتبعوه تركوه وخالفوه، والبهتان الذى كان يجب أن يجتنبوه اتبعوه، وهذا سلوك مخالف لقضية الحق بين الخير والشر.

وقلنا: إن الآية الكريمة تعرضت لأمر قد شاع عند بعض من بنى إسرائيل، لقد قالوا: إن سليمان إنما صار ملكاً وثرياً بفضل ما تعلمه من سحر. وهذا قول باطل، برَّأ اللَّه سليمان منه فى قوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ إن سليمان لم يكفر، إنما تلقى نعمة اللَّه بالعرفان والشكر، وسخَّر اللَّه له ما شاء من خلقه تكريماً له، وإرادة الحق فى ذلك لها حكمة بالغة، ومن حكمته تعالى أن يعطيه ملكاً لا ينبغى لأحد من العالمين، لقد شاءت إرادة الحق ذلك؛ ليكون سليمان رسولاً له مكانة فى قومه، مكانة تليق بالزمن الذى جاء فيه سليمان.

إن المتأمل للموكب الرسالى يجد أن كل رسول قد صادف فى قومه المكابرين والمعاندين والكافرين والمتربصين به الدوائر لماذا؟

لأن الرسول لا يجيء إلا وقد استشرى الشر، ومادام الشر قد استشرى، فلابد أن للشر قوماً ينتفعون به، وحين يأتى رسول لينهى سيادة الشر فى الأرض، فهو يواجه أول ما يواجه المنتفعين بالشر، ولا يتبع النبى غالبا إلا الضعفاء؛ ليخلصهم الرسول برسالته من شر الأقوياء، وقد أراد اللّه برسالة سليمان أن يبين لنا طبيعة الإنسان.. حين يؤيد رسولاً بملك لايمكن لأحد أن يخالفه، إنه رسول وملك من نوع خاص.

فالملوك يملكون ما يدخل تحت قدرتهم بالإمكانات المادية، لكن اللّه أعطى سليمان ملكاً لا ينبغى لأحد من العالمين؛ لأنه سخر له القوى التى لا يمكن أن تسخر لبشر عادى، فكأن اللّه يريد أن ينبه الإنسان أنه لو أراد حكماً من السماء مسنوداً بحكم ملكى، فلن يستطيع إنسان أن يرفع رأسه؛لأن الخالق جل وعلا قادر على أن يسخر لمثل ذلك الحكم ما يجعله يقهر الجميع على أن يذعنوا له لكن الحق لا يريد ذلك، إنما يريد سبحانه طواعية الإيمان واختيارية اليقين.

لذلك يترك الرسل ضعفاء؛ليعلم من يقبل عليهم بنداء الإيمان لا بمجرد القهر.

ولذلك خُير رسول اللّه ﷺ أن يكون نبياً ملكاً، فرفض رسول اللّه[1]. لماذا؟ لأنه إذا كان ملكاً نبياً ستكون له من أسباب القوة مالا يستطيع أحد أن يخالف دعوته، قهرًا وعنوة؛ لذلك اختار رسول اللّه الرسالة والعبودية دون الملك.. اختار أن يدعو الناس إلى اللّه، فيأتونه رغباً فى منهج اللّه لا رهباً من ملكه هو.

ولقد اتهم بعض من بنى إسرائيل سليمان بأنه كفر، ويقرر الحق: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ ويدلنا الحق أن الكفر كان من الشياطين الذين يعلمون الناس السحر، ونكتشف من ذلك أن نبى اللّه سليمان لم يكن يعلم السحر، وأن ملكه واستتباب الأمر له لم تكن قضية سحر، إنما هى مشيئة الحق سبحانه وتعالى.

(١) إشارة لما رواه النسائى فى الكبرى [٤/ ١٧١/ ٦٧٤٣] عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن الله أرسل إلى نبيه ﷺ ملكاً من الملائكة ومعه جبريل، فقال الملك إن الله يخيرك بين أن تكون عبداً نبياً، وبين أن تكون ملكاً فالتفت رسول الله ﷺ إلى جبريل كالمستشير فأشار جبريل بيده أن تواضع فقال رسول الله ﷺ بأن أكون عبداً نبياً.

نبيُّ اللَّه إشعيا بن أمصيا

قال ابن كثير: قال محمد بن إسحاق: وكان قبل زكريا ويحيى وهو ممن بشر بعيسى ومحمد عليهما السلام. وكان فى زمانه ملك اسمه حزقيا على بنى إسرائيل ببلاد بيت المقدس، وكان سامعًا مطيعًا لإشعيا فيما يأمره به وينهاه عنه من المصالح، وكانت الأحداث قد عظمت فى بنى إسرائيل، فمرض الملك وخرجت فى رجله قرحة وقصد بيت المقدس ملك بابل فى ذلك الزمان وهو سنحاريب. قال ابن إسحاق: فى ستمائة ألف راية. وفزع الناس فزعًا شديدًا. وقال الملك للنبى إشعيا: ماذا أوحى اللَّه إليك فى أمر سنحاريب وجنوده؟ فقال: لم يوحَ إلىَّ فيهم شىء بعد، ثم نزل عليه الوحى بالأمر للملك حزقيا بأن يوصى ويستخلف على ملكه من يشاء، فإنه قد اقترب أجله. فلما أخبره بذلك أقبل الملك على القبلة فصلى وسبح ودعا وبكى فقال وهو يبكى ويتضرع إلى اللَّه عز وجل بقلب مخلص وتوكل وصبر: اللهم رب الأرباب وإله الآلهة يا رحمن يا رحيم، يا من لا تأخذه سنة ولا نوم، اذكرنى بعملى وفعلى وحسن قضائى على بنى إسرائيل، وذلك كله كان منك فأنت أعلم به من نفسى، وسرى وإعلانى لك.

قال: فاستجاب اللَّه له ورحمه، وأوحى اللَّه إلى إشعيا أن يبشره بأنه قد رحم بكاءه وقد أخر فى أجله خمس عشرة سنة وأنجاه من عدوه سنحاريب، فلما قال له ذهب منه الوجع وانقطع عنه الشر والحزن وخر ساجدًا وقال فى سجوده: اللهم أنت تعطى الملك من تشاء، وتنزعه ممن تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء، عالم الغيب والشهادة، فأنت الأول والآخر والظاهر والباطن، وأنت ترحم وتستجيب دعوة المضطرين. فلما رفع رأسه أوحى اللَّه إلى إشعيا أن يأمره أن يأخذ ماء التين فيجعله على قرحته فيشفى ويصبح قد برىء. ففعل ذلك فشفى.

وأرسل اللَّه على جيش سنحاريب الموت فأصبحوا وقد هلكوا كلهم سوى سنحاريب وخمسة من أصحابه منهم بختنصر أرسل ملك بنى إسرائيل فجاء بهم فجعلهم فى الأغلال وطاف بهم البلاد على وجه التنكيل بهم والإهانة لهم سبعين يومًا ويطعم كل واحد منهم كل يوم رغيفين من شعير ،ثم أودعهم السجن، وأوحى

اللَّه تعالى إلى إشعيا أن يأمر الملك بإرسالهم إلى بلادهم لينذروا قومهم ما قد حل بهم، فلما رجعوا جمع سنحاريب قومه وأخبرهم بما قد كان من أمرهم فقال له السحرة والكهنة: إنا أخبرناك عن شأن ربهم وأنبيائهم فلم تطعنا، وهى أمة لا يستطيعها أحد من ربهم فكان أمر سنحاريب مما خوفهم اللَّه به. ثم مات سنحاريب بعد سبع سنين.

قال ابن إسحاق: ثم لما مات حزقيا ملك بنى إسرائيل مرج أمرهم واختلطت أحداثهم وكثر شرهم، فأوحى اللَّه تعالى إلى إشعيا فقام فيهم فوعظهم وذكرهم وأخبرهم عن اللَّه بما هو أهله وأنذرهم بأسه وعقابه إن خالفوه وكذبوه فلما فرغ من مقالته عدوا عليه وطلبوه ليقتلوه، فهرب منهم فمر بشجرة فانفلقت له فدخل فيها وأدركه الشيطان فأخذ بهدبة [1] ثوبه فأبرزها فلما رأوا ذلك جاءوا بالمنشار فوضعوه على الشجرة فنشروها ونشروه معها، فإنا للَّه وإنا إليه راجعون.

قصص الأنبياء [٥٧١-٥٧٣].

(١) بهدبة ثوبه: الهدب من الثوب طرفه الذى لم يُنسج. المعجم الوسيط [٢/ ٩٧٥].

أرميا بن حلقيا من سبط لاوى بن يعقوب

قال ابن كثير: وقد قيل: إنه الخضر. رواه الضحاك عن ابن عباس. وهو غريب وليس بصحيح[١].

وقال ابن عساكر: جاء فى بعض الآثار أنه وقف على دم يحيى بن زكريا وهو يفور بدمشق فقال: أيها الدم.. فتنت الناس فاسكن. فسكن ورسب حتى غاب[٢].

وقال أبو بكر بن أبى الدنيا: عن عبد اللّه بن عبد الرحمن قال: قال أرميا: أىْ رب، أىّ عبادك أحب إليك؟ قال: أكثرهم لى ذكرًا، الذين يشتغلون بذكرى عن ذكر الخلائق، الذين لا تعرض لهم وساوس الفناء ولا يحدثون أنفسهم بالبقاء، الذين إذا عرض لهم عيش الدنيا قَلوْهُ وإذا زوى عنهم سروا بذلك، أولئك أنحلهم محبتى أعطيهم فوق غاياتهم[٣].

قصص الأنبياء [٥٧٣].

---

(١) إسناده موضوع: انظر تهذيب ابن عساكر [٢/ ٣٨٤].

(٢) انظر: تهذيب تاريخ ابن عساكر [٢/ ٣٨٤].

(٣) أخرجه ابن عساكر فى تاريخه، انظر التهذيب [٢/ ٣٨٦] وفيه علىّ بن أبى مريم لم أقف عليه.

obeikandl.com

دانيال عليه السلام

قال ابن كثير: روى بسنده عن عبد الله بن أبى الهزيل قال: ابن أبى الدنيا: أحضر بختنصر أسدين فألقاهما فى جب، وجاء بدانيال فألقاه عليهما فلم يهيجاه، فمكث ما شاء اللَّه، ثم اشتهى ما يشتهى الآدميون من الطعام والشراب ؛ فأوحى اللَّه إلى أرميا وهو بالشام أن أعدد طعامًا وشرابًا لدانيال. فقال: يارب، أنا بالأرض المقدسة ودانيال بأرض بابل من أرض العراق. فأوحى اللَّه إليه: أن أعدد ما أمرناك به فإنا سنرسل من يحملك ويحمل ما أعددت. ففعل وأرسل إليه من حمله وحمل ما أعده حتى وقف على رأس الجب، فقال دانيال: من هذا؟ قال: أنا أرميا. فقال: ما جاء بك؟ فقال: أرسلنى إليك ربك. قال: وقد ذكرنى ربى؟ قال: نعم. فقال دانيال: الحمد للَّه الذى لا ينسى من ذكره. والحمد للَّه الذى يجيب من رجاه، والحمد للَّه الذى مَن وثق به لم يكله إلى غيره، والحمد للَّه الذى يجزى بالإحسان إحسانًا، والحمد للَّه الذى يجزى بالصبر نجاة، والحمد للَّه الذى هو يكشف ضُرَّنا بعد كرْبنا، والحمد للَّه الذى يقينا حين يسوء ظننا بأعمالنا ، والحمد للَّه الذى هو رجاؤنا حين تنقطع الحيل عنا.

وقال أبو العالية قال: لما افتتحنا تستر وجدنا فى مال بيت الهرمزان سريرًا عليه رجل ميت عند رأسه مصحف، فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر بن الخطاب فدعا له كعبًا فنسخه بالعربية، فأنا أول رجل من العرب قرأه، قرأته مثل ما أقرأ القرآن هذا. فقلت لأبى العالية، ما كان فيه؟ قال: سيركم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد. قلت: فما صنعتم بالرجل؟ قال: حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبرًا متفرقة ، فلما كان بالليل دفناه ؛ وسوينا القبور كلها لنعميه على الناس فلا ينبشونه قلت: فما يرجون منه؟ قال: كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون. قلت: من كنتم تظنون الرجل؟ قال: رجل يقال له: دانيال.

قلت: منذ كم وجدتموه قد مات؟ قال: منذ ثلاثمائة سنة. قلت: ما تغير منه شىء؟ قال: إلا شعرات من قفاه، إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض ولا تأكلها السباع. وهذا إسناد صحيح إلى أبى العالية، ولكن إن كان تاريخ وفاته محفوظًا من

ثلاثمائة سنة فليس بنبى بل هو رجل صالح ؛ لأن عيسى ابن مريم ليس بينه وبين رسول اللَّه ﷺ نبى بنص الحديث الذى فى البخارى، والفترة التى كانت بينهما أربعمائة سنة، وقيل: ستمائة. وقيل: ستمائة وعشرون سنة، وقد يكون تاريخ وفاته من ثمانمائة سنة وهو قريب من وقت دانيال، وإن كان كونه دانيال هو المطابق لما فى نفس الأمر، فإنه قد يكون رجلاً آخر إما من الأنبياء أو الصالحين، ولكن قربت الظنون أنه دانيال ؛ لأن دانيال كان قد أخذه ملك الفرس فأقام عنده مسجونًا كما تقدم.

وقد روى بإسناد صحيح إلى أبى العالية أن طول أنفه شبر، وعن أنس بن مالك بإسناد جيد أن طول أنفه ذراع، فيحتمل على أن يكون رجلا من الأنبياء الأقدمين قبل هذه المدد.. واللَّه تعالى أعلم.

وروى أبو بكر بن أبى الدنيا فى كتاب «أحكام القبور»: عن أبى الأشعث الأحمرى، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن دانيال دعا ربه عز وجل أن تدفنه أمة محمد». فلما افتتح أبو موسى الأشعرى تستر وجده فى تابوت تضرب عروقه ووريده، وقد كان رسول اللَّه ﷺ قال: «من دل على دانيال فبشروه بالجنة». فكان الذى دل عليه رجل يقال له: حرقوص فكتب أبو موسى إلى عمر يخبره فكتب إليه عمر: أن ادفنه وابعث إلى حرقوص، فإن النبى ﷺ بشره بالجنة.

وهذا مرسل من هذا الوجه وفى كونه محفوظًا نظر.. واللَّه أعلم.

ثم قال ابن أبى الدنيا: حدثنا قاسم بن عبد الله عن عنبسة بن سعيد - وكان عالماً قال وجد أبو موسى مع دانيال مصحفًا وجرة فيها ودك ودراهم وخاتمه، فكتب أبو موسى بذلك إلى عمر فكتب إليه عمر: أما المصحف فابعث به إلينا، وأما الودك [١] فابعث إلينا منه ومُر من قبلك من المسلمين يستشفون به واقسم الدراهم بينهم، وأما الخاتم فقد نفلناكه[٢].

وروى ابن أبى الدنيا من غير وجه: أن أبا موسى لما وجده، وذكروا له أن دانيال التزمه وعانقه وقبله، وكتب إلى عمر يذكر له أمره، وأنه وجد عنده مالاً موضوعًا قريبًا من عشرة آلاف درهم، وكان من جاء اقترض منها فإن ردها وإلا مرض وإن عنده ربعه، فأمر عمر بأن يغسل بماء وسدر ويكفن ويدفن ويخفى قبره فلا يعلم به أحد، وأمر بالمال أن يرد إلى بيت المال وبالربعة فتحمل إليه ونفله

---

(١) الودك: الدسم أو دسم اللحم ودهنه الذى يستخرج منه المعجم الوسيط [٢/ ١٠٢].

(٢) النفل: الهبة المعجم الوسيط [٢/ ٩٤٢].

خاتمه. وروى عن أبى موسى أنه أمر أربعة من الأُسراء فَسَكَّرُوا نهرًا وحفروا فى وسطه قبرًا فدفنه فيه، ثم قدم الأربعة الأسراء فضرب أعناقهم فلم يعلم موضع قبره غير أبى موسى الأشعرى رضى اللَّه عنه.

وروى ابن أبى الدنيا: عن عبد الرحمن بن أبى الزناد عن أبيه قال: رأيت فى يد ابن أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى خاتما نقْش فصِّه أسدان بينهما رجل يلحسان ذلك الرجل، قال أبو بردة: وهذا خاتم ذلك الرجل الميت الذى زعم أهل هذه البلدة أنه دانيال، أخذه أبو موسى يوم دفنه، قال أبو بردة: فسأل أبو موسى علماء تلك القرية عن نقش ذلك الخاتم، فقالوا: إن الملك الذى كان دانيال فى سلطانه جاءه المنجمون وأصحاب العلم فقالوا له: إنه يولد كذا وكذا غلام يعور ملكك ويفسده. فقال الملك: واللَّه لا يبقى تلك الليلة غلام إلا قتلته، إلا أنهم أخذوا دانيال فألقوه فى أجمة الأسد فبات الأسد ولبؤته يلحسانه ولم يضراه، فجاءت أمه فوجدتهما يلحسانه فنجاه اللَّه بذلك حتى بلغ ما بلغ، قال أبو بردة: قال أبو موسى: قال علماء تلك القرية: فنقش دانيال صورته وصورة الأسدين يلحسانه فى فص خاتم؛ لئلا ينسى نعمة اللَّه عليه فى ذلك. إسناد حسن.

قصص الأنبياء [٥٨٣ - ٥٨٦].

نبىُّ اللَّه العُزير عليه السلام

قال اللَّه تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩] عندما ننظر إلى الآية.. نجدها تبدأ بـ ﴿أَوْ﴾، وما بعد «أو» يكون معطوفا على ما قبلها، فكأن الحق يريد أن يقول لنا: ألم تَرَ إلى مثل الذى مرَّ على قرية، ونحن أيضا عندما نسمع كلمة ﴿قَرْيَةٍ﴾ فإنها تفيد مجمع جماعة من الناس، ونفهم أن الذى مر على هذه القرية ليس من سكانها، إنما هو قد مر عليها سياحة فى رحلة، ونلحظ كذلك أن الحق لم يشأ أن يأتى لنا باسم القرية، أو باسم الذى مر عليها. قال البعض: إنه أرميا، وقال بعض آخر: إنه الخضر، وقال بعض ثالث: إنه عزير، ونحن نقول: إن التشخيص لا يعنينا؛ لأن الحق حين يبهم التشخيص، فذلك لأمر يريده هو سبحانه، والآية هنا فى مجال عرض قدرة الخالق.

ونلحظ أن الحق قد وصف القرية بأنها: ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾، والقرية الخاوية على عروشها، الخالية من السكان، وقد تكون أبنيتها موجودة ومهدمة، إنها أبنية بلا عروش والعروش السقوف، أى أبنية خربة، والعرش حين يكون على البيت فالمقصود به الفسطاط المصنوع مما تصنع منه السقوف، فكأن العرش قد سقط أولاً على الأرض وتراكمت الجدران مهدمة من فوقه. ويقول الذى مر على هذه القرية: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، والذى مر على القرية عندما يتكلم عن إحياء القرية بعد الموت، فكأنه يسأل عن حياة الناس الذين هم أهل القرية. فالقرية لا حياة لها بدون أهل، إن القرية تكون خربة بدون أناس يسكنونها، فالقرآن الكريم حين يذكر القرية فى بعض الأحيان فهو يريد الحديث عن أهلها.

إذن.. فسؤال الذى مر على القرية الخاوية على عروشها هو سؤال أهلها عن

أنها قرية خربة.. وهكذا نفهم أن عمارة المكان من لوازم الكائن الحى وهو الإنسان، والقرية الخاوية على عروشها هى: قرية بلا سكان.

وعندما يقول الذى مر على هذه القرية: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أى كيف يحيى اللَّه هذه القرية بعد موتها؟ إن إحياء هذه القرية يتطلب أن يوجد فيها بشر لإقامة الجدران والعروش؛ وذلك حتى يتحقق العمران، إن الإنسان لازم لملزوم هو العمران وهو دليل الحياة، عندما يسأل واحد مثل هذا السؤال: كيف يحيى اللَّه هذه القرية بعد موتها؟ التساؤل لا يدل على أنه مؤمن ويشك فى أن قضية الحياة أو الموت من عند اللَّه، إنما هو يريد أن يتعرف الكيفية التى يتم بها الإحياء.

إذن.. فتساؤل العبد المؤمن عن كيفية عمارة اللَّه لهذه القرية، وتساؤل إبراهيم عليه السلام عن كيفية الإحياء بعد الموت هو التعجب. والتعجب فرع الإيمان بالحدث، والسؤال عن الكيفية معناه تيقن للحدث وإيمان بصانع الحدث، فعندما يسأل السائل أنى يحيى اللَّه القرية بعد موتها؟ فهذا السائل لا يشك فى قدرة اللَّه على الإحياء، ولكنه يريد أن يعرف الكيفية، والكيفية ليست مناط اعتقاد أو مناط إيمان. إن اللَّه لم يتعبَّدنا بأن نعرف الكيفية، وإنما تعبَّدنا بأن نؤمن بأنه قادر على الإيجاد لهذا الحدث؛ لأنه القادر على كل شىء.

إذن.. فقول السائل: كيف يحيى اللَّه هذه القرية بعد موتها؟ وقول إبراهيم خليل الرحمن: ﴿أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؟ هذان القولان لا ينفيان الإيمان عن السائل عن عمارة القرية بالحياة، ولا عن إبراهيم عليه السلام، ولكن كليهما مشتاق إلى معرفة الكيفية؛ ليعيش فى جو الإبداع لمن أنشأ هذه الصنعة؛ وعندما يسأل الرجل المؤمن: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فنحن نجد لازما وملزوما، والمراد الاثنان، إنه يتكلم عن قرية خاوية على عروشها، ويتساءل عن الإحياء. والإحياء كما نعرف يكون للبشر الذين سيقومون بالحركة التى تعمر وجود تلك القرية، فكأن الناس لهم حياة ولهم موت، والقرية بأنقاضها لها حياة ولها موت. وسؤال العبد المؤمن: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؟ جاءت الإجابة لسؤاله إجابة عملية.

لقد كان سؤال العبد المؤمن عن الكيفية. وهناك شىء نقتنع به بالدليل، وشىء نقتنع به بالمشاهدة، وقد أراد اللَّه أن يجعل الدليل إيمان مشهد ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ﴾، لم يجعل اللَّه الدليل المشهدى فى القرية، إنما جعل اللَّه الدليل المشهدى فى ذات السائل، قال تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ ويخبرنا الحق سبحانه بحوار دار بينه وبين هذا العبد. فإما أن

يكون الحق سبحانه قد كلمه كما كلَّم موسى عليه السلام، أو سمع العبد المؤمن صوتا أو ملكا، المهم أن سؤالا قد حدث: ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾؟

فأجابه الرجل: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾. إن إجابة الرجل تعنى أنه قد تشكك، وقد قال المفسرون: إنه وَجَدَ اليوم قد قارب على الانتهاء، أو انتهى: أو أنه عندما رأى الشمس مشرقة أجاب هذه الإجابة، قال ذلك لأنه لا يستطيع أن يتحكم فى تقدير الزمن، فهل هو صادق فى قوله أم كاذب؟ إنه صادق لماذا؟ لأنه لم ير شيئا قد تغير فيه؛ ليحكم بمقدار التغيير.

لو كان قد نام بشعر أسود، وقام بعد ذلك بشعر أشيب، لو حدثت أية تغييرات فيه لكان قد لمسها. لكنه لم يجد تغييراً فماذا كان جواب الحق؟ ﴿بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾، إننا هنا أمام قولين؛ ويكاد الأمر يصبح لغزا، قول الرجل الذى يقول: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، وقول ربنا تعالى: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ الحق سبحانه صادق ومنزه، والعبد المؤمن صادق فى حدود ما رأى من أحواله. ونريد دليلا على هذا ودليلا على ذلك، نريد دليلا على صدق العبد فى قوله: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ ونريد من الحق سبحانه وتعالى دليلا على أن الرجل قد مات مائة عام وعاد إلى الحياة.

ونحن نقول: إن فى القصة ما يؤيد صدق الرجل فى أنه تصور الزمن الذى مَرّ عليه يوما أو بعض يوم، وما يؤيد صدق قول الحق سبحانه: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾، لماذا؟ لأن الرجل كان معه حماره، وكان معه طعامه وشرابه من عصير وعنب وتين، وأراد الحق سبحانه أن يدلل على الصدق فى القضيتين معا فقال الحق: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ﴾ ونظر الرجل إلى طعامه وشرابه فوجد الطعام والشراب لم يتغير منهما شيء. ومعنى عدم التغير أنه لم يمكث إلا يوما أو بعض يوم. هذا دليل صدق الرجل.

وبقيت مسألة موت الرجل مائة عام، قال الحق سبحانه للرجل: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾، وحين يقول الحق: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾، فهذا يدل على أن شيئاً عجيباً قد حدث.. إنه آية، والآية تعنى: شيئاً عجيبا؛ وأراد الله له أن يبين بطلب النظر إلى الحمار، أن يجد الرجل عظام الحمار مبعثرة، ولا يمكن أن يحدث ذلك فى يوم وليلة، لايمكن أن يموت الحمار ويرم جسمه ثم ينتهى لحمه إلى رماد، ثم تبقى العظام مبعثرة! إن حدوث ذلك للحمار يتطلب زمانا

طويلا، لا يتسع له إلا مائة عام، فكأن نظرة الرجل إلى الحمار تجعله يصدق أنه لبث مائة عام، ونظرة الرجل إلى الطعام تجعله يصدق أنه لبث يوما أو بعض يوم.

فالقضية هى قضية عجيبة، إذن.. كيف طُوِىَ الزمن فى مسألة الطعام؟ وكيف بُسِطَ الزمن فى مسألة الحمار؟

إن اللَّه يريد أن يثبت أنه هو القابض والباسط، إنه اللَّه الذى يقبض الزمن فى حق شىء ويبسط الزمن فى شىء آخر، والشيئان متعاصران معا، وتلك العملية لا يمكن أن تكون إلا لقدرة اللَّه الخالق سبحانه.

إن الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾، من هم الناس الذين سيجعل اللَّه من قضية الذى مر على تلك القرية ﴿ءَايَةً﴾ لهم؟ كان لابد أن يوجد أُناس فى القصة، لكن القرية كانت خاوية على عروشها، فلا إنسان ولا بنيان. فهل هم الناس الذين كانوا فى القرية أم سواهم؟ قال البعض من المفسرين هذا، وقال البعض من المفسرين ذاك. وأصدق شىء يتصل بصدق اللَّه فى قوله: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ كدليل على قبض اللَّه الزمن فى حق شىء وبسطه فى حق شىء آخر، هو ما يلى: إن عزيرًا هو الذى مر على تلك القرية كما قال جمهرة العلماء، وعزير كان من الأربعة الذين يحفظون التوراة. إن أربعة فقط هم الذين حفظوا التوراة هم: موسى، وعيسى ابن مريم، وعزير، ويوشع عليهم السلام.

أراه اللَّه العظام كيف ينشزها بقدرته جل وعلا، ثم يكسوها لحما، فإن عزيرا قد رأَى رأْى العين عملية الإحياء. لقد قال عزير من قبل: كيف يحيى اللَّه هذه القرية بعد موتها؟ والحق سبحانه أراه التجربة عمليا؛ قال له: انظر إلى عظام حمارك ننشزها: أى نرفعها، أى نرفع كل عظمة من الأرض، ونركِّب كل عظمة فى مكانها وبعد ذلك تأتى الحياة لتدب فى الحمار، لقد وجد عزير الحياة فى نفسه، ورآها فى الحمار.

وبعد ذلك تذكر عزير قرية قد خرج منها وأراد أن يعود إليها، ولما عاد إلى تلك القرية وجد أمرها قد تغير تغيرا يتناسب مع مرور مائة عام. وكان فى هذه القرية مولاة لأسرة العزير - أى أَمة أو جارية - وكانت هذه الأَمة قد عميت، فلما دخل العزير عليها وقال: أنا العزير، قالت الأمة: ذهب العزير من مائة عام ولا ندرى أين ذهب ولم يعد، فكرر عليها القول: أنا العزير، قالت الأَمة: إن للعزير علامة، وهذه العلامة أنه كان مجاب الدعوة، فإن كنت حقا العزير فادع اللَّه أن يرد

علىَّ بصرى، وأن يخرجنى من قعودى هذا. إن الأَمة لا تنسى نفسها والعزير أراد أن يؤكد لها أنه هو. فدعا اللَّه لها برد البصر والقيام من القعود فبرئت الأمة، ولما برئت الأمة نظرت إليه فوجدته هو العزير، فذهبت إلى قومها وأعلنت أن العزير قد عاد

بعد ذلك ذهب العزير ليرى ابنه، فوجده رجلا طاعنا فى السن قد بلغ من العمر مائة عام، وكان العزير لا يزال شابا، ولنقل: إنه كان فى الخمسين من عمره؛ ولذلك نرى الشاعر يقول ملغزا: وما ابن رأى أباه وهو فى ضعف عمره؟

لأن العزير قد مات فى عمر الخمسين، وقد بعثه اللَّه على نفس عمره أما ابنه فقد بلغ من العمر مائة عام لأنه لم يمت ولم يبعث، بل عاش حياة متواصلة، وهكذا أصبح الولد فى عمر المائة، وأصبح الوالد فى عمر الخمسين، فقال ابن العزير: إننى كنت أعرف لأبى علامة إنها شامة بين كتفيه، فلما كشف له العزير كتفيه وجد الابن العَلامة التى يعرفها فى أبيه.

وقال بعض المفسرين شيئا آخر: إن بختنصر حينما جاء إلى مدينة بيت المقدس وخربها حرق التوراة، إلا أن رجلا قال: إن أباه قد دفن فى مكان من كرم نسخة من التوراة، فجاءوا بالنسخة فقال العزير: وأنا أحفظها وقرأ عزير التوراة كما وجدت فى النسخة، فصدق الناس أنه العزير. تلك هى الآية، وتعجب الناس أن الابن فى سن مائة والأب فى سن الخمسين، وهذه هى الآية للناس. ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ هذا القول يأتى على لسان العزير، فهل معنى ذلك أنه لم يكن يعلم من قبل أن اللَّه على كل شىء قدير؟ لا. لقد كان يعلم علم الاستدلال، ولأنه قد أصبح يعلم علم الشهادة، علم الضرورة وليس مع العين أين.

إذن.. قول العزير: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، ما الذى تبين له؟ لقد تبين له قدرة اللَّه على أن يبسط الزمن ويقبض الزمن، لقد كان يعلم من قبل علم اليقين والآن أصبح يعلم حق اليقين.

❁❁❁

دعوى باطلة

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠]؛ نقول: إن هذا الادعاء فيه مساس بجلال اللَّه، فالإنسان

يتخذ ولدا لعدة أسباب: إما لأنه يريد أن يُبقى ذكره فى الدنيا بعد أن يرحل، واللَّه سبحانه وتعالى هو الحى الذى لا يموت، وإما لكى يعينه ابنه عندما يكبر ويضعف، واللَّه سبحانه وتعالى هو القوى، وإما ليرث ماله وما يملك، واللَّه تبارك وتعالى يرث الأرض ومن عليها، وإما ليكون عزوة له واللَّه جل جلاله العزيز دائماً، وهكذا تنتفى كل الأسباب التى يمكن أن تؤدى إلى هذا الادعاء، ولا يعقل أن يرسل اللَّه سبحانه وتعالى رسولا ليبين للناس منهج الحق فيقول: إنه ابن اللَّه.

ثم يقول سبحانه: ﴿اتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]؛ الحق سبحانه وتعالى استهل هذه الآية بقوله: ﴿اتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا﴾ وهذا مناف لما أمروا به؛ لأنهم أمروا بأن يعبدوا اللَّه الواحد الأحد؛ والأرباب هنا منافية للألوهية الواحدة؛ وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ فالمسيح رسول اللَّه، ولا يمكن أن يأتى بأوامر ونواه من عنده؛ لأنه جاء ليعدل ميزان إيمان الناس بربهم، ومعنى أنهم قالوا: إن المسيح ابن اللَّه، أنهم ألهوه لأن يعبد؛ وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ أعطت الوحدانية للَّه من جانب إثبات الألوهية، وقوله تعالى: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ نفت وجود إله إلا اللَّه سبحانه وتعالى، فكأن اللَّه جاء بها من جانبى الإثبات والنفى.

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾، تنزيه للَّه سبحانه وتعالى عن أى شىء يوجد فى البشر، فكلمة ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ ولفظ الجلالة «اللَّه» لا تقال إلا للَّه سبحانه وتعالى. لذلك يقول اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

إذن.. فاللَّه سبحانه وتعالى بالقدرة والقهر حجز ألسنة البشر جميعا أن يقول أحدهم لأحد: «سبحانك»، أو أن يسمى أحد ابنه «اللَّه».

اللَّه سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وموقف المشركين وأهل الكتاب واقع تحت هذه الآية، لماذا؟ لأن منهج اللَّه لا يأتى إلا إذا عم الفساد، واللَّه يريد من الإنسان أن يكون مصلحا، وأقل درجات الصلاح أن تترك الصالح فلا تفسده، فإن استطعت أن ترتقى به يكون ذلك أحسن؛

فإذا كانت هناك بئر يشرب منها الناس، فالصلاح أن تترك هذه البئر ولا تردمها، والأصلح منه أن تحمى جدرانها بالطوب؛ حتى لا تنهار الأتربة وتسدها، وأن تحاول أن تُسهل حصول الناس على الماء من البئر، والأصلح منه أن تصنع خزانا عاليا، ومن هذا الخزان تمد المواسير؛ ليصل الماء إلى الناس فى منازلهم بدون تعب. هذا إصلاح.

إذن.. فاللَّه جل جلاله يريد من الإنسان أن يصلح فى الأرض، والمجتمع كله يسعد بأى إصلاح فى الأرض؛ ولذلك فإن اللَّه سبحانه وتعالى يعطى اختيارات فى أشياء ولا يعطيها فى أشياء أخرى، فالإنسان له اختيار فى أن يصلى أو لا يصلى، يتصدق أو لا يتصدق، يعمل أو لا يعمل إلى آخر ما نعلمه، ولكن الكون الأعلى محكوم بالقهر.

obeikandl.com

نبيُّ اللَّه زكريا عليه السلام

زكريا هو الذى كفل مريم وقام على خدمتها؛ وكأن اللَّه تعالى اختاره لهذه المهمة؛ لأن القوم حينما تسابقوا إلى كفالة مريم واستهموا على ذلك، كان هذا الشرف من نصيب زكريا عليه السلام.

انظروا.. الناس كانت تتسابق فى الخير، وكانوا يفهمون أن كفالة مريم شرف كبير، فضربوا قرعة على هذا الأمر، فجاءوا بالأقلام وألقوها فى البحر، والقلم الذى يطفو هو الذى يكفل صاحبه مريم. وذلك قول اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، مما يدل على أنهم فهموا أن كفالة مريم شرف كبير يسعى إليه كل إنسان، ولا يصح لأحد أن يناله دون اقتراع، والقرعة هى وزن للمسائل حتى لا يغضب أحد.

وكان زكريا كلما دخل على مريم يجد عندها رزقا لم يأت به هو؛ فيستغرب، ويسألها: من أين أتاها هذا الرزق؟ فتخبره أنه من عند اللَّه وذلك قول اللَّه تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

وهذا يعلمنا أن الإنسان المسئول عن الإنفاق على أهل بيته إذا وجد شيئاً فى البيت لم يحضره هو، عليه أن يسأل: من أين جاء هذا الشىء؟ لأنه ربما يكون أتى من طريق غير شرعى؛ لأنه هو المسئول عن أهل بيته، واللَّه سبحانه سائله عنهم وعليه أن لا يغض بصره عن هذه الأشياء؛ لأنها مداخل الشر.

فلما دخل زكريا ووجد الرزق المنوَّع عند مريم، وقالت له عن مصدره: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧] هنا تساءل زكريا: كيف فاتنى هذا الأمر ولذلك يقول الحق عن زكريا: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [مريم: ٣٨] ساعة أن قالت له: إن الرزق من عند اللَّه، وإنه الذى يرزق من يشاء بغير حساب، وأيقظت فيه القضية الإيمانية، قال

زكريا لنفسه: فلنطلب من ربنا أن يرزقنا ما نرجوه لأنفسنا، وكونه قال ذلك، فمعنى هذا أن زكريا صدَّق مريم فى قولها بأن هذا الرزق الذى يأتيها هو من عند اللَّه، ودليل آخر فى التصديق هو أنه لابد وقد رأى أن الأشياء التى توجد عند مريم ليست فى بيئته وليست فى زمانه، إنها أشياء متعددة، إنه يدخل عليها المحراب وكلما دخل وجد عندها رزقا.

ونحن نعرف أن المحراب كلمة يراد بها بيت العبادة، والمحراب هو مكان الإمام فى المسجد، أو هو حجرة يصعد إليها بسلم كالمبلغات التى تقام فى بعض المساجد، وما دامت مريم قد أخبرت زكريا وهى فى المحراب بأن الرزق من عند اللَّه، وأيقظت تلك القضية الإيمانية لديه؛ فقد دعا زكريا فى أثناء وجوده فى المحراب: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾؛ إنه هنا يطلب الولد، ولكن لابد لنا أن نلاحظ، هل كان طلبه للولد لما يطلبه الناس العاديون من أن يكون زينة للحياة أو عزوة أو ذكراً؟ لا؛ إنه يطلب الذرية الطيبة، وذِكر زكريا للذرية الطيبة تفيد معرفته أن هناك ذرية غير طيبة.

وفى قول زكريا: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾. أى أن يكون وعاء لإرث النبوة وإرث المناهج وإرث القيم، هكذا طلب زكريا الولد لقد طلبه لمهام كثيرة وكبيرة، وقول زكريا: ﴿هَبْ لِي﴾ تعنى أنه استعطاء شىء بلا مقابل، إنه يعترف ويقول: أنا ليس لى المؤهلات التى تجعل لى ولدا؛ لأنى كبير السن وامرأتى عاقر، إذن فعطاؤك يا رب هو هبة ليس حقاً لى، كأن الذى عنده استعداد لأن يكون هذا الأمر حقاً، فعليه أن يعرف أن عطاء اللَّه له يظل هبة، فإياك أن تظن أن اكتمال الأسباب والشباب هى التى تعطى الأبناء، إن الحق سبحانه ينبهنا ألا نقع فى خديعة غش أنفسنا بالأسباب؛ يقول سبحانه وتعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى] إن فى ذلك لَفتاً واضحاً وتحذيراً محدداً ألا نفتن بالأسباب.

إن دعاء زكريا ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ﴾؛ كلمة هب توضح ما جاء فى سورة مريم من قول زكريا: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨] إن ﴿هَبْ﴾ هى التى توضح لنا هذه المعانى، هكذا كان دعاء زكريا: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾، هل المراد أن يسمع اللَّه الدعاء أم أن يجيب اللَّه الدعاء؟ إنه يضع كل أمله فى اللَّه، كأنه يقول: إنك يا

رب فور أن تسمعنى ستجيبنى إلى طلبى بطلاقة قدرتك، لماذا؟ لأنك يا رب تعلم صدق نيتى فى أننى أريد الغلام، لا لشىء من أمور قرة العين والذكر والعز وغيرها، إنما أريد الولد ليكون وارثاً لى فى حمل منهجك فى الأرض.

❁❁❁

بشارة الملائكة لزكريا

يقول الحق: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩]؛ هل صنعت الملائكة جوقة[1] لتنادى زكريا؟ لا؛ لأن جبريل عليه السلام هو الذى ناداه، ولماذا جاء قول الحق سبحانه على هذا النحو؟ لنفطن إلى أن الصوت له جهة يأتى منها، فالصوت القادم من الملأ الأعلى لا يعرف الإنسان من أين يأتيه؛ وكأنه يأتى من كل الجهات.

إذن.. فقول الحق: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، فهذا يعنى أن الصوت قد جاء لزكريا من جميع الجهات ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾. لقد نادته الملائكة حال صلاته للّه؛ أو هو حينما دعا أخذ ما علمه اللّه الأنبياء إذا حزبهم أمر قاموا إلى الصلاة، وعلى كل واحد منا عندما يصعب عليه شىء وتتأزم الأمور وتمتنع الأسباب، أن يقوم فيتوضأ ويقف بين يدى اللّه ويسأله من فضله ورحمته، ويطلب منه سبحانه أن ييسر له أمره ويعينه على قضاء حاجته.

ومعنى حزبه أمر، أى: أن أسبابه ضاقت، لذلك يذهب إلى الصلاة بخشوع إلى اللّه خالق الأسباب، إنها ذهاب إلى المسبب، وبدلاً من أن تتشعَّب نفسك وتتحيَّر، اذهب إلى اللّه من أقصر الطرق وهو الصلاة، لماذا تتعب نفسك ولك رب حكيم؟! إن من له أب لا يحمل هماً والذى له رب أليس أولى بالاطمئنان؟ إن زكريا قد دعا اللّه فى حاجة له، دعاء الواثق من ربه فما كان إلا أن نادته الملائكة وهو يصلى، إنها لم تنتظر إلى أن ينتهى من الصلاة؛ لأنه لا بد لها من الإسراع فى إبلاغ أمر اللّه، لا تأخير ولا انتظار، دعا اللّه فاستجاب له ونادته الملائكة وهو واقف بين يدى ربه يناجيه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾ والبشارة هى إخبار بخير زمنه لم يأت.

قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ لقد قال اللّه له سأعطيك، وزيادة على

---

(١) جوقه: جوق القوم عليه . ارتفعت اصواتهم واختلطت المعجم الوسيط [١/١٤٨].

العطاء سماه اللَّه بـ: يحيى، وفوق كل ذلك: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾، ولننظر إلى دقة البلاغ فى قوله تعالى: ﴿بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا﴾ هذا دليل على أنه سيعيش بمنهج اللَّه، ودليل على أنه سيعمل الطاعات وهو مصدق، وهو سيأتى بكلمة من اللَّه، أو هو يأتى ليصدق بكلمة من اللَّه؛ فهو عليه السلام أول من آمن برسالة عيسى عليه السلام.

وقد وصفه الحق سبحانه بقوله: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ أى ممنوعاً من كل ما حُرم عليه، وهو نبى أى قدوة فى الاتباع.

لما دعا زكريا، وتلقى البشارة بيحيى عندئذ قال زكريا ببشريته: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٠]، إن زكريا وهو الطالب تعجَّب من الاستجابة؛ فيتساءل: كيف يكون ذلك؟

يقول زكريا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾؛ إن بلوغ الكبر ليس نصاً فى أنه غير قادر على إخصاب امرأة، ذلك أن الإخصاب بالنسبة للرجال ليس أمراً يتحكم فيه تقدُّم العمر، إن لم يكن عاقراً، ولكن المرأة هى الطرف المهم فى ذلك، فإن كانت عاقراً فذلك قمة العجز فى الأسباب، ولو أن زكريا قال فقط: وامرأتى عاقر، لكان أمراً غير مستحب بالنسبة لزوجته؛ لذلك أوردها من أولها: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾؛ تأمل دقة القول فى بلغنى الكبر، إنه لم يقل: بلغت الكبر، إنه يقول: إن الكبر هو الذى جاءنى، ولم أجئ أنا إلى الكبر؛ لأن بلوغ الشىء يعنى أن هناك إحساس ورغبة بأن تذهب إليه.

وقال زكريا: ﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾، وذلك تعميم لطلاقة القدرة عند من يستمع القصة، لقد أورد كل القوالب البشرية، وبعد ذلك يأتى القول الفصل: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ إنها طلاقة القدرة التى فوق الأسباب؛ لأنها قدرة خالق الأسباب.

❁❁❁

من أين تعلَّم زكريا أن اللَّه يعطى وإن عزَّت الأسباب؟

لم يصدق البُشرى من فرط سعادته، فأراد أن يتأكد منها؛ لذلك قال: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨]. فأُوحى إليه أن يطرح الأسباب التى عرفها؛ لأن الذى يكلمه هو الخالق عز وجل، الذى قال له: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩]، ولكن من أين تعلَّم زكريا أن اللَّه يعطى وإن عزت الأسباب؟ عرف هذا لأنه كان موصولا باللَّه عز وجل.

واستجاب اللَّه سبحانه وتعالى دعاء زكريا ووهبه يحيى قال تعالى:

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، فالله سبحانه وهب لزكريا غلاماً رغم تعطل الأسباب، وفوق ذلك هو الذى سمَّاه: ﴿يَحْيَىٰ﴾، إن لله سرا فى هذه التسمية؛ لأن الناس يضعون الأسماء بمسمياتها، وكل واحد حر فى أن يضع اسما لأى مسمى، فلو أن امرأة زنجية أنجبت بنتاً واختارت لها اسم «قمر» لا يستطيع أحد أن يمنعها من ذلك، فالناس أحرار فى تسمية ما يريدون، فالاسم يخرج من معناه الأصلى إلى أن يصير علماً على هذا المسمى، وإن حاد عنه المعنى؛ فتسمى واحدا «سعيد» وهو شقى، وتسميه «فاضل» وليس عنده شىء من الفضل؛ لأن الناس يسمون هذه الأسماء تفاؤلا أن يكون المولود كذلك، فأنت إذا سميت ابنك «يحيى» لا تملك له أن يحيا أو يعيش، ولكن إذا سماه من يملك الموت والحياة فلابد أن يحيا والذى يقوله الله فيه لابد أن يظل ذكره حتى بعد موته؛ ولذلك ﴿يَحْيَىٰ﴾ شاء له الله أن يموت شهيداً؛ حتى يظل حياً وكلمة: ﴿وَوَهَبْنَا﴾: معناها أن هذا المولود لم يجئ عن طريق القانون التكوينى للناس، ولكن جاء هبة من الله رغم كبر والده وعقم أمه.

فلابد أن يعطيه أطول من حدود أعمار الناس، بل إنه لا يموت أيضاً لكن الكل من البشر يموت، الحق سبحانه يهيِّىء ليحيى من خصومه ومن أعدائه من يقتله؛ ليكون شهيداً وهو بالشهادة يصير حياً، فكأنه يحيا دائماً.

ومعنى: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥ﴾؛ أى جعلناها صالحة للإنجاب بعد أن كانت عاقراً.

إذن.. ﴿يَحْيَىٰ﴾ جاء بقدرة الله وحده بغير الأسباب الكونية للميلاد؛ لأن الله تعالى أراد ذلك، فربنا سبحانه أصلح الزوجة التى كانت غير صالحة للإنجاب.

وعملية الإنجاب هذه ليست عملية ميكانيكية، ولكنها متعلقة بإرادة الخالق ومشيئته، فأحياناً تجد زوجين صالحين للإنجاب ومع ذلك يتأخر الحمل شهوراً أو سنوات، لأن الله تعالى لم يأذن بالذرية، وأحياناً تجد زوجين استمرت حياتهما الزوجية سنوات طويلة دون إنجاب، وربما يحدث طلاق بينهما وتتزوج الزوجة فتنجب، ويتزوج الرجل فينجب فهذه أشياء ليست ميكانيكية، ولكنها تخضع لمشيئة الخالق، ولذلك فعلى المسلم الذى يُبتلى بالعقم ويستنفد الأسباب أن يكثر من فعل الخيرات ويدعو الله سبحانه ويلح عليه فى الدعاء. ومعنى: ﴿خَٰشِعِينَ﴾ أى راضين بقدرهم فى وجود العقم، ولا يرفع قضاء حتى يرضى صاحبه به، فإذا كنت

عقيماً فلا تبخل بمالك وتضن به على المحتاجين، وانظر إلى أولاد الناس على أنهم أولادك، وانزع من نفسك الحقد والكراهية التى قد يسببها لك عدم الإنجاب، وسارع فى الخيرات، وادع اللَّه سبحانه أن يعطيك من فضله؛ لأنه هو سبحانه ولى ذلك والقادر عليه، وبعد ذلك اخشع للَّه، ومعنى الخشوع: هو الاطمئنان لمقادير الخالق فى الخلق، فترضى بقدر اللَّه فيك بأنك عقيم، وبعد هذا الرضا تدعوه أن يهبك من فضله ذرية صالحة مع رضائك التام وتسليمك بقدر اللَّه، مع يقينك الكامل فى قدرته على كل شىء، وحكمته البالغة فى كل ما كتبه على الناس من أقدار.

❁❁❁

لماذا طلب زكريا آية على الحمل؟

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١]؛ إن زكريا يطلب علامة على أن القول انتقل إلى فعل، لماذا يطلب علامة إذا كان اللَّه قد: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩] لقد كان هذا القول تأكيداً لا شك فيه، فبمجرد أن قال الرب انتهى الأمر، فماذا يريد زكريا من بعد ذلك؟ إنه يطلب ﴿ءَايَةً﴾ أى علامة على أن ﴿يَحْيَىٰ﴾ قد تم إيجاده فى رحم أمه، فكانت استغاثة زكريا: يا رب لا تتركنى أفهم بالعلامات الظاهرة المحسة؛ لأننى أريد أن أعيش فى إطار الشكر لك عليه، فبمجرد أن يحدث الإخصاب لابد أن أحيا فى نطاق الشكر؛ لأن النعمة قد تأتى وأنا غير شاكر، إنه يطلب ﴿ءَايَةً﴾ ليعيش فى نطاق الشكر، إنه لم يطلب ﴿ءَايَةً﴾ عن شكٍ فى قدرة اللَّه، معاذ اللَّه، ولكن لأنه لا يريد أن يفوّت على نفسه شكر النعمة من أول وجودها.

والذى يعطينا هذا المعنى هو قول الحق سبحانه: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾، فهل معنى ذلك أن يمتنع هو عن الكلام؟ أو أن معناه أن يرغب فى الكلام فلا يستطيع؛ إن هناك فارقاً بين أن يقدر على الكلام ولا يتكلم، وبين ألا يقدر على الكلام، وما دامت الآية هبة من اللَّه، فالحق هو الذى قال له سأمنعك من أن تتكلم مع الناس إلا رمزاً. أى: بالإشارة، كفاقد القدرة على الكلام، وحتى نعرف أن الآية قادمة من اللَّه، وأن زكريا لايريد أن تمر عليه لحظة من نعم اللَّه بدون شكر للَّه عليها، فإننا نعلم أن اللَّه سينطقه.

وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾ تفيد أن زكريا قادر على الذكر، وغير قادر على كلام الناس، لذلك لا يريد اللَّه أن يشغله بكلام الناس، وكأن اللَّه يريد أن يقول: مادمت قد أردت أن تعيش مع النعمة شكراً، أجعلك غير قادر على الكلام مع الناس لكنك قادر على الذكر. والذكر مطلقاً هو: ذكر اللَّه بآلائه.

لذلك كانت الآية قوله تعالى: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾. الحق جعل الآية ألا يكلم زكريا الناس ثلاثة أيام إلا بالإشارة، وقد يكون عدم الكلام فى نظر الناس مرضاً.. لا، إنه ليس كذلك؛ لأن الحق يقول له: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ إن الحق يجعل زكريا قادراً على التسبيح وغير قادر على الكلام، إنها قدرة أخرى من طلاقة قدرة اللَّه، إن اللسان الواحد غير قادر على الكلام إلا بالرمز، ولو حاول أن يتكلم لما استطاع، ولكن هذا اللسان نفسه أيضاً يصبح قادراً فقط على التسبيح بالعشى والإبكار، وذكر اللَّه؛ إنه ذَكَرَ اللَّه باللسان وسمعه الناس، إنها بيان لطلاقة القدرة.

❁❁❁

اصطفاء اللَّه تعالى لآل عمران

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]. نحن نعلم أن إبراهيم عليه السلام هو: «أبو الأنبياء» ومن آل ابراهيم، اصطفى اللَّه تعالى من ضمن ما اصطفى آل عمران؛ وكلمة: «عمران» ترد فى القرآن اسم لشخصين: الأول: «عمران» والد موسى وهارون عليهما السلام.

والثانى: «عمران» والد السيدة مريم عليها السلام. «عمران» والد موسى وهارون عليهما السلام كان اسم أبيه «يصهر» واسم جده «قاهت» ومن بعده «لاوي» ومن بعده «يعقوب» ومن بعده «إسحاق» وبعده «إبراهيم». وقد حصل إشكال عند عدد من الدارسين وهو أىّ العمرانين ذكره اللَّه تعالى هنا؟

ولما اختلفوا لم يفطنوا إلى أن القرآن قد أعطى الهوية والمعنى، وكان يجب أن يفهموا أن المقصود هنا ليس عمران والد موسى وهارون، بل عمران والد مريم أُمّ عيسى عليهم جميعاً السلام.

وعمران والد مريم هو ابن ماثان وهو من نسل سليمان، وسليمان ابن داود، وداود من إيشا، وإيشا من يهوذا، ويهوذا من يعقوب، ويعقوب من إسحاق؛ وهو ابن أبو الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام.

لذلك كان على المختلفين أن يفطنوا إلى ذكر اسم مريم عليها السلام من بعد ذلك، فيعلمون أنه عمران والد مريم.

وزكريا عليه السلام كان اسم والده: دان - ويقال: لدن - وكان معاصراً لماثان. إذن.. يكون المراد هنا هو عمران والد مريم، والذى زاد من حيرة المختلفين هو وجود أخت لموسى وهارون كان اسمها مريم، وكانوا فى هذا الزمن يتفاءلون باسم مريم؛ لأن معناه العابدة فى لغتهم.

وعندما تقول: اصطفيت كذا على كذا، فمعنى ذلك أنه كان من الممكن أن يصطفى واحداً على الآخرين، ولذلك نفهم المقصود بقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أى: على عالمى زمانهم، إنهم قوم كانوا موجودين وقد اصطفى منهم واحداً، أما الذى سيولد من بعد ذلك فلا اصطفاء عليه؛ إننا نتكلم عن عالمهم الموجود فى زمانهم

وقوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ٣٤] يجب أن نعلم: هل المقصود بذلك الأنساب، أم الدين والقيم؟ خاصة أن الحق سبحانه قد علّمنا فى مسألة إبراهيم أن الأنساب بالدم واللحم عند الأنبياء لا اعتبار لها، وإنما الأنساب المعترف بها بالنسبة للأنبياء هى أنساب القيم والدين.

إذن.. فنحن نفهم قول الحق سبحانه: ﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾ على أنها ذرية فى توارثها للقيم.

❁❁❁

دافع مناجاة امرأة عمران لله تعالى

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥]. عندما نقرأ ﴿إِذْ﴾ فلنعلم أنها ظرف، ويقدر لها فى اللغة: «اذكر»، ويقال: إذ جئتك، أى: اذكر أنى جئتك: وعندما يقول الحق تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ﴾ فبعض الناس يفهم أن الحق سبحانه سمع قول امرأة عمران، وعلم سبحانه دافعها وقت أن قالت امرأة عمران: ﴿رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى﴾؛ إنهم يحاولون أن يربطوا هذه الآية بما جاء قبلها من أن اللّه تعالى سميع وعليم؛ لأن الحق قال قبلها: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

وقولها: ﴿رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا﴾؛ فالدافع إلى هذه المناجاة للّه سبحانه: أنها كانت موجودة فى بيئة ترى الناس يعتزون بأولادهم، وأولاد الناس يحكمون حركة الناس، والناس يحكمون حركة أولادهم، ويكدُّ الناس من أجل أن

يكون الأبناء عزوة وقرة عين، ولم تعجب امرأة عمران بذلك؛ لقد أرادت ما فى بطنها محرراً من كل ذلك. إنها تريده محرراً منها وهى محررة منه، وهذا يعنى أنه غير مرتبط بشىء أو بحب أو برعاية؛ فلماذا؟

إنّ الإنسان مهما كان مجاهداً لنفسه فى طاعة اللّه، فإن المسائل التى تتصل بالناس وبه تمر عليه وتشغله؛ لذلك أرادت امرأة عمران ما فى بطنها محرراً من كل ذلك.

وقد يقال: إن امرأة عمران إنما تتحكم بهذا النذر فى ذات إنسانية كذاتها.

ونرد على ذلك بما يلى: لقد كانوا قديماً عندما ينذرون ابنا للبيت المقدس - ما دامت لهم الولاية عليه - يظل كما أرادوا إلى أن يبلغ سن الرشد، وعند بلوغ سن الرشد فإن الابن له أن يختار بين أن يظل كما أراد والده، أو يحيا حياته كما يريد. وبلوغ سن الرشد هو اعتراف بذاتية الإنسان فى اتخاذ القرار المناسب لحياته.

إن امرأة عمران لا تريد ما فى بطنها أن يكون قرة عين، أو أن يكون معها، إنها تريده محرراً لخدمة البيت المقدس، وطلب امرأة عمران هذا يقتضى - فى التصور البشرى - أن يكون المولود ذكرا؛ لأن الذين كانوا يقومون بخدمة البيت هم الذُكران.

إذن.. فمعنى طلب امرأة عمران: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾؛ أى أنها تطلب ولدا ذكراً، ونحن نعرف أن كلمة الولد تطلق على الذكر والأنثى، ولكن الاستعمال الشائع هو أن يطلق الناس كلمة ولد على الذكر فقط، ولكن «الولد» كلمة معناها المولود سواء أكان ذكراً أم أنثى. وكلمة «نذر» عندما نسمعها نفهم أنها أمر أُريد به طاعة فوق تكليف المكلف من جنس ما كُلِّف.

إن النذر هو زيادة عما كُلّف المكلّف من جنس ما كلف. وكلمة: ﴿نَذَرْتُ﴾ إن امرأة عمران كانت تقية وورعة، ولكنها ليست مجبرة على النذر، وفعلت ذلك - وهو أمر زائد - من أجل خدمة بيت اللّه؛ لأنه إن قام البعض بخدمة البيت فأمر خدمة البيت يسقط عن الباقين، وإن لم يقم أحد بخدمة البيت فإن ذلك معناه وقوع الجميع فى الإثم، وما دامت امرأة عمران قد نذرت ما فى بطنها محرراً، فهذا يدل على حبها لربها جل وعلا؛ لأن النذر كما نعلم يُظهر حب العبد لربه ولأوامره؛ فإنك لو لم تحب ربك لما زدت فوق ما كلفك من جنس ما كلفك.

والمقصود بقوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾ القبول هو أخذ الشىء برضا؛ لأنك قد تأخذ بكرهٍ أو تأخذ على مضض أما ﴿فَتَقَبَّلْ﴾ فذلك يعنى أن الأخذ بقبول ورضا.

واستجاب اللَّه لهذا الدعاء؛ قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾.

و «الرَّب» هو المتولى للتربية؛ لذلك قالت امرأة عمران: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ هكذا كان الدعاء، وهكذا كانت الاستجابة: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾: الحسن هنا هو زيادة فى الرضا؛ لأن كلمة: ﴿بِقَبُولٍ﴾ تعطينا معنى الأخذ بالرضا، وكلمة: ﴿حَسَنٍ﴾ توضح أن هناك زيادة فى الرضا، وذلك مما يدل أن اللَّه قد أخذ ما قدمته امرأة عمران برضا وبشىءٍ حسن، وهذا دليل أن الناس ستلمح فى تربيتها شيئاً من الرضا؛ إنه ليس قبولاً عادياً، لكنه قبول حسن.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ يدل على أن امرأة عمران كانت تقصد حين نذرت ما فى بطنها ألا تربّى ما فى بطنها إلى العمر الذى يستطيع فيه المولود أن يخدم فى بيت اللَّه، ولكنها نذرت ما فى بطنها منذ اللحظة الأولى لميلاده، إنها لن تنعم به، ولذلك قال الحق: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾، وزكريا هو زوج خالة السيدة مريم عليهما السلام.

❁❁❁

أمنية امرأة عمران

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ﴾ هذا القول من امرأة عمران؛ لأنها كانت قد قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ لخدمة البيت. وقولها: ﴿مُحَرَّرًا﴾؛ تعنى أنها أرادت ذكراً لخدمة البيت، فلما جاء المولود ﴿أُنثَىٰ﴾ ففهمت أن ذلك لا يؤدى إلى الغرض المطلوب الذى أرادته؛ وهو خدمة البيت فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ﴾ فكأنها قد قالت: إن لم أُمكن من الوفاء بالنذر فلأن قدرك سبق فى أنه غير منذور. ولكن الحق يقول بعد ذلك: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ [آل عمران: ٣٦]؛ إن هذا القول يعنى أنها لا تعترض على قدر اللَّه، ولكنها تريد أن تظهر التحسر؛ لأن الغاية من نذرها لم تتحقق، لقد كانت تتحسر لأنها كانت تحب أن يكون المولود ذكراً لخدمة البيت، فإن لم تقدر على الوفاء فلأن اللَّه قدر أن يكون المولود أنثى.

الحق سبحانه يقول بعد ذلك: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾ فهل هذا كلامها أم من كلام اللَّه تعالى؟ إما أنه كلام اللَّه تعالى؛ فكأنها لما قالت: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ﴾ قال

اللَّه تعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾ كأن الحق يقول - ما معناه-لا تظنى أن الذكر الذى كنت تتمنّينه سيصل إلى مرتبة هذه الأنثى؛ إن هذه الأنثى لها شأن عظيم.

أو أنه من تمام كلامها: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ﴾ ويكون قول الحق سبحانه: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ هو جملة اعتراضية، ويكون تمام كلامها: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾ أى أنها قالت: يارب إن الذكر ليس كالأنثى؛ إنها لا تصلح لخدمة البيت؛ وليأخذ المؤمن المعنى الذى يحبه، وسنجد أن المعنى الأول فيه إشراق أكثر.

فلا يقولن أحد ذكراً أو أنثى لأن نية امرأة عمران فى الطاعة أن يكون المولود ذكراً، وشاء قدر اللَّه أن تكون أنثى، وتكون هذه الأنثى أسمى من تقدير امرأة عمران فى الطاعة لذلك قال: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾ أى: أن الذكر لن يصل إلى مرتبة هذه الأنثى.

وقالت امرأة عمران: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

إن امرأة عمران قالت ما يدل على شعورها، فحينما فات المولودة أن تكون فى الخدمة لبيت اللَّه تعالى؛ لأنها جاءت أنثى، تمنت امرأة عمران وتفاءلت أن تكون المولودة طائعة عابدة، فسمَّتها مريم لأن مريم فى لغتهم معناها العابدة، فما فات المولودة فى خدمة البيت، فليكن فى خدمة عقائدها وخدمة منهجها فى ذاتها. وأول ما يقدح العبودية هو الشيطان؛ فإنه هو الذى يجعل الإنسان يتمرد على العبودية.

إن الإنسان يريد أن يصير عابداً فيجىء الشيطان ليزين له المعصية؛ لأجل ذلك أرادت امرأة عمران أن تحمى ابنتها من نزغات الشيطان؛ لأنها عرفت بتجربتها أن المعاصى كلها تأتى من نزغات الشيطان، وقد تمنت لمريم أن تكون عابدة؛ لقد كانت امرأة عمران تمتلك عقلية إيمانية حاضرة تحمل المنهج التعبدى كله، فقالت: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

وعلمنا الرسول ﷺ حين يأتى الرجل أهله أن يستعيذ باللَّه تعالى من الشيطان؛ لأن إتيان الأهل مظنة لمولود قد يجىء، فعلى العبد أن يقول: «بسم اللَّه اللهم جَنّبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا[1]»، ومن يقول هذا الدعاء قبل إتيانه

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [١٤١] ومسلم [١٤٣٤/١١٦] عن ابن عباس رضى اللَّه تعالى عنه.

أهله فلا يكون للشيطان ولاية أو سبيل على المولود إن قُدر أن يكون، ولذلك قالت امرأة عمران: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

والذرية قد يفهمها الناس على أنها النسل المتكاثر، ولكن كلمة ذرية تطلق على الواحد وعلى الاثنين وعلى الثلاثة، والذرية هنا بالنسبة لمريم هى: عيسى عليهما السلام.

❁❁❁

كفالة زكريا لمريم

يقول تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]. قد عرفنا القبول الحسن والإنبات الحسن، أما قوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ فهذا يعنى أن المسألة جاءت من أعلى، إنه الرب الذى تقبلها بقبول حسن وهو سبحانه الذى أنبتها نباتاً حسناً.

إذن.. فرعاية زكريا لها بأمر من اللّه، والدليل على ذلك أنّك ساعة تجد قرعة أو سهاماً فالناس تكون قد خرجت من مراداتها المختلفة إلى مراد اللّه، فعندما نختلف على شىء، فإننا نُجرى قرعة ويُخصص سهم لكل مشترك فيها، ونرى بعد ذلك من الذى يخرج، ذلك لنمنع هوى البشر؛ وهذا ما حدث عند كفالة زكريا لمريم.

ولذلك فالحق سبحانه يقول لرسوله محمد ﷺ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

إذن.. فالكفالة جرى فيها تنازع، دليل ذلك أنهم اتفقوا على إجراء قرعة بالنسبة لكفالة مريم، ولا يمكن أن يلجأوا إلى هذه القرعة إلا إذا كان قد حدث تنازع بينهم عن: ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾، ومن فضل اللّه أن زكريا عليه السلام كان متزوجاً من أشياع أخت حنة التى هى أم مريم، فهو زوج خالتها.

وقوله: ﴿أَقْلَٰمَهُمْ﴾ قيل: إنها القداح التى كانوا يصنعونها قديماً، أو: الأقلام التى كتبوا بها التوراة؛ فرموها فى البحر، فمن طفا قلمه فاز بكفالة مريم، ومن غرق قلمه فى البحر لم يفز بكفالة مريم.

إذن.. فهم قد خرجوا عن مراداتهم إلى مراد اللّه سبحانه، والخروج عن

المرادات والخروج عن الأهواء كالقرعة مثلا لا يُوجِد فى النفس غضاضة، لكن لو كان سيأخذ رعاية مريم بالقوة والغصب، لكانت نفوس الآخرين ممتلئة بالمرارة أو الغضب، ولذلك فقد كان سائداً فى ذلك العصر عملية إجراء السهام إذا ما خافوا أن يقع الظلم على أحد أو أن يُساء الظن بأحد.

وقول الحق سبحانه: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾: يرشدنا إلى أن زكريا عليه السلام هو الذى كان يقوم برعاية شئون مريم.

obeikandl.com

اصطفاء مريم على نساء العالمين فى زمانها

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢].

﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، قيل: إن المراد بالملائكة جبريل عليه السلام. وعلّة أن الحق سبحانه يورد ذلك بقوله: ﴿قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ لأن كلام المتكلم له زاوية انطلاق يأتى من جهتها الصوت، وتستطيع أن تتأكد من ذلك إذا سمعت صوتاً، فإنك تجد ميلَ أذنِك لجهة مصدر الصوت، فإن جاء الصوت من ناحية أذنك اليمنى فأنت تلتفت وتميل إلى يمينك، وإذا جاءك الصوت من شمالك تلتفت إلى الشمال، لكن المتكلم هنا هو الملائكة يتكلمون بنفس واحد؛ لذلك فالصوت قد جاء مريم من كل جهة حتى يصير الأمر عجيباً.

ماذا قالت الملائكة؟ قالت: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فى هذه الآية نجد أن الحق سبحانه لم يورد ﴿عَلَىٰ﴾ فى الاصطفاء الأول، وأورد بعده أنه طهّرها، ثم أورد فى الاصطفاء الثانى: ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

إذن.. لابد لنا أن نعلم ما هو الاصطفاء؟ الاصطفاء: اختيار واجتباء مأخوذ من الصفو، والصفو أو الصافى: هو الشىء الخالص من الكدر، لذلك يكون قول الحق سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ أى: اختارك واجتباك.. بماذا؟ بالإيمان والصلاح والخلق الطيب، كل ذلك بالمعانى، ولم يورد فى الاصطفاء الأول على من يكون الاصطفاء. ولكن فى الاصطفاء الثانى قال الحق: ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

إذن.. فهذا خروج للرجال عن دائرة الاصطفاء، إنه ليس موضوع رجال، وإنما هى مصطفاة على نساء العالمين؛ إذ لا توجد أنثى فى العالمين تشاركها فى هذا. لماذا؟ لأنها هى الوحيدة التى ستلد من دون ذكر، وهذه مسألة لن يشاركها فيها أحد.

ولنا أن نسأل ما نتيجة الاصطفاء؟ لقد عرفنا أن الاصطفاء هو الاجتباء والاختيار. «المصطفَى» بفتح الفاء يقتضى «المصطفِى» بكسر الفاء. والمصطفِى هو اللّه تعالى،

ومن الذى اصطُفِى؟ إنها من وقع عليها الاصطفاء، ولكن ما علة الاصطفاء؟ لنرى هذا الأمر. إن الذى يصطفيه اللّه يصطفيه لمهمة، وتكون مهمة صعبة.

إذن.. فهل يجب على الناس أن يفرحوا بالمصطفى أم لا يفرحوا به؟ إن عليهم أن يفرحوا به؛ لأنه جاء لمصلحتهم. وبعد ذلك يقول الحق جل وعلا: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣].

فكأن ما تقدم من حيثيات الاصطفاء الأول والاصطفاء الثانى، يستحق منها القنوت، أى: العبادة الخالصة الخاضعة الخاشعة.

ومعنى قوله تعالى: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ﴾ إنه أمر بالعبادة الخاشعة المستديمة لربها، وكلمة: ﴿لِرَبِّكِ﴾ أى: لخالقك الذى رباك؛ فكأن الاصطفاءات نِعَمٌ على مريم، تستحق منها القنوت. وقوله تعالى: ﴿وَٱسۡجُدِي﴾ أى: بالغى فى الخشوع والخضوع بوضع الجبهة التى هى أشرف شىء فى الإنسان على الأرض؛ لأن السجود هو أعلى مرتبة فى الخضوع، لكن هل هذا اللون من الخضوع يعفيها مما يكون مع الناس؟ لا.. إنه الأمر الحق يصدر لمريم: ﴿وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾.

فليس فى فعلك السجود وهو القمة فى الخضوع إعفاءٌ من فعل الركوع، بل عليك أن تركعى مع الراكعين، أى: كونى معهم راكعة، فلا يحق لكِ يا مريم أن تقولى لقد أمرنى اللّه بالسجود الذى هو قمة الخضوع والخشوع. إن الحق يأمرها أن تكون أيضاً ضمن ركب الراكعين، ولم يقل الحق مع «الراكعات»؟ قبل الإجابة عن هذا السؤال نحب أن نمهّد تمهيداً بسيطا على فلسفة الأسماء فى وضعها على مسمَّياتها، والأسماء ألفاظ من اللغة تعيّن مسمّاها، والمسمَّيات مختلفة؛ فمنها الجماد، ومنها النبات، ومنها الحيوان، ومنها الأسماء التى تدل على عالم الغيب كالجن والملائكة... إلخ. هذه الأسماء تدل على معانيها، وهدى اللّهُ سبحانه البشرَ إليها بما علم آدم من الأسماء؛ لأن الحق لو لم يُعلّم آدم الأسماء فكيف كان باستطاعة آدم معرفة الأسماء، وكيف كان باستطاعته التعبير عن معطيات الأسماء بمسمياتها؟

قول الحق سبحانه لمريم: ﴿وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾؛ الركوع ليس خاصاً بالمرأة حتى يقول: «مع الراكعات»، ولكنه أمر عام يشمل الرجل والمرأة، ولو افترضنا أن الحق قد قال: «اركعى مع الراكعات»، فهل كان ذلك منعاً للرجال من الصلاة أو منعها هى من الصلاة؟ لا.. لذلك جاء الأمر لمريم بأن تركع مع الراكعين، ومجىء الأمر عاماً يدخل الراكعات مع الراكعين، ولو قال الحق: «اركعى مع

الراكعات» لم يدخل الراكعين فى الراكعات؛ إن المعنى هنا عام يشمل الجميع.

❁❁❁

مريم من ذرية إبراهيم عليه السلام

قال اللَّه تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤].

حينما نسمع قول الحق ﴿وَوَهَبْنَا﴾ نعرف أن العطاء لم يأت بالأسباب، وإنما جاء بلا أسباب، فإذا عملت عملاً وأخذت أجراً عليه، فهذا ليس هبة، واللَّه سبحانه وتعالى قد جعل التكاثر البشرى هبة من عنده.. فالذرية هى هبة من اللَّه لخلقه، ومجرد الزواج الذى هو التقاء الرجل بالمرأة لا يأتى بالذرية، ولكنها هبة من اللَّه؛ لأنها ليس فيها مشقة العمل، وهكذا تخرج من منطق الأجر إلى منطق الهبة، كذلك فإن العقم الذى يُبتلى به أىّ من الزوجين هو أيضاً هبة؛ ذلك لأنك اذا استقبلت العقم بالحمد ولم تنظر إلى أبناء الغير بالحقد والحسد، يجعل اللَّه كل من تراه ابناً لك؛ هذا يخدمك، وهذا يخدمك، هذه هى هبة العقم. أما هبة الإناث فإنك لو رضيت بها، تجد أن اللَّه يبعث إليك رجالاً يتزوجون بناتك، ويصبح هؤلاء الرجال أفضل لك وأكثر طاعة من أبنائك.

إبراهيم عليه السلام وزوجته لم يكونا ينجبان، وتزوج إبراهيم هاجر وأنجب منها إسماعيل عليهما السلام، ربما كان ذلك أخذاً بالأسباب؛ لأن إبراهيم لم يكن فى هذا الوقت قد أصبح شيخاً، ولكن عندما كبر إبراهيم وكانت زوجته سارة عقيماً لا تلد وهبه اللَّه إسحاق عليهما السلام؛ لتكون هذه الهبة مع عجز الأسباب دليلاً على طلاقة القدرة، وإسحاق تزوج وأنجب يعقوب.

الإنسان منا يعلم بواقع قوانين الكون أنه ميت، وعندما يكبر الإنسان يريد أن يكون له ابن ليرث اسمه فى الحياة، فإذا جاءه ولد فكأنه ضمن استمرار حياته جيلاً، فإذا جاء له حفيد ضمن استمرار حياته جيلين، فإذا كان الولد تقياً صالحاً كان ذلك قرة عين الأب؛ ولذلك فعلينا أن نطلب دائماً النسل الصالح اقتداءً بالأنبياء؛ فهذا زكريا حينما دعا ربه قال: ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ [مريم].

أى أنه يجب ألا نطلب الولد فقط، ولكننا نطلب الولد الصالح الذى يحمل الخير للناس. وهنا نلحظ أن قول الحق سبحانه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ كُلًّا

هَدَيْنَا نُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٤]؛ هما هبة من اللَّه تعالى، ومكافأة لخليل الرحمن عليه السلام.

إذن.. فمكافأة إبراهيم عليه السلام على طاعته للَّه سبحانه لما ابتلاه بكلمات فأتمهن، جاءت هدية صالحة؛ فلم يُعْطَ الولد والحفيد فقط، ولكنه أعطيهما مهديين نبيين، ونِعْمَ الهبة الولد الصالح، ولم تكن هبة اللَّه لإبراهيم مقصورة على ذلك؛ بل جعل فى ذرية إبراهيم الأنبياء: داود، وسليمان، وأيوب، ويوسف، وموسى، وهارون، وزكريا، ويحيى، وعيسى، وإلياس، وكذلك إسماعيل ونبينا محمَّد صلوات اللَّه عليهم وسلامه.

عندما نلتفت إلى أسماء الأنبياء التى ذكرت فى هذه الآيات، نجد أن القرآن الكريم قد بين لنا أن هبة اللَّه لإبراهيم لم تقتصر على هؤلاء، بل قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ۖ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنعام].

المذكورون فى هذه الآيات من الرسل ثمانية عشر، وهناك سبعة من الأنبياء لم يذكروا فى هذه الآيات، وذكروا فى آيات أخرى من القرآن الكريم، وهم: إدريس، وهود، وشعيب، وصالح، وذو الكفل، وآدم، ثم خاتم الأنبياء محمد رسول اللَّه ﷺ. وأطول آية قسَّم فيها الرسل هى هذه الآية من سورة الأنعام.

ولننظر إلى حكمة التقسيم. فمن هؤلاء الأنبياء المذكورين: اثنان كانا ملكين هما سليمان، وداود عليهما السلام.

إن اللَّه أعطى سليمان وداود عليهما السلام سعة الملك والسلطان، فماذا أُعطى أيوب عليه السلام؟ابتلاه وأعطاه الصبر على البلاء. وموسى وهارون وعيسى عليهم السلام أعطاهما شهرة الاتباع ولذلك لا نكاد نعرف شيئاً من الأديان إلا اليهودية والمسيحية. وزكريا ويحيى وإلياس عليهم السلام أعطاهم الزهد، فهؤلاء أخذوا ملكة الزهد. وإسماعيل واليسع ويونس ولوط عليهم السلام أعطاهم زهرة الحياة؛ ولذلك لا نعرف لهم أتباعاً. ونأتى بعد ذلك إلى نبينا محمد ﷺ فقد أعطاه اللَّه تعالى الهدى الذى يقتدى به خلق اللَّه كلهم فهم بهداه مهتدون.

وحين ذكر اللَّه تعالى عيسى عليه السلام وقف العلماء عند قول اللَّه سبحانه:

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾، أى: من ذرية إبراهيم، وهل عيسى من ذرية أحد؟ نعم العنصر البشرى فى عيسى وهو الأم مريم عليها السلام من ذرية إبراهيم، وهذا ما احتج به أبو جعفر محمد الباقر، حين قال له الناس فى موسم الحج: أنتم تدعون أنكم من نسل رسول اللَّه ﷺ مع أن رسول اللَّه ﷺ لم ينجب ذكوراً؟ قال لهم كأنكم لم تقرءوا القرآن فى قول الحق: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ إلى أن تصل إلى نبى اللَّه عيسى، وعيسى عليه السلام ولد من غير أب، من أنثى فقط، إذن فنحن من ذرية محمد ﷺ.

ثم يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

وهنا استعمال ذلك إشارة إلى ما تقدم وهم: إبراهيم وإسحاق ويعقوب وسليمان. لماذا قال الحق: ﴿ذَٰلِكَ﴾ ولم يقل: «أولئك» مع تعددهم؟ لأن الإشارة هنا إلى شىء جامع، وهم المهديون من اللَّه، لذلك فهو شىء واحد، أما «الكاف» فإن اللَّه يخاطب بها مفردا، وهو رسول اللَّه ﷺ وخطاب الرسول ﷺ هو خطاب لكل أمته.

❁❁❁

المعجزة تشمل مريم وعيسى عليهما السلام

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠]، حين يوجد لفظ مفرد ولكنه خبر عن اثنين فلابد أن يَعُمَّ الخبر الطرفين، فقول اللَّه سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ يفيد أن الآية ليست من واحد منهما، ولكنها من مجموع الاثنين معاً؛ لأن الآية هنا أن عيسى عليه السلام ولد من غير أب، ومريم أنجبت ولم يمسسها بشر لا بزواج ولا زنا، فالمسألة متعلقة بكل منهما، فالآية لا تكون فى واحد منهما دون الآخر.

ونظراً لأن الآية متعلقة بهما على حد سواء، تجد الحق سبحانه مرة يذكر ابن مريم أولاً، فيقول تعالى كما فى هذه الآية: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾.

وفى آية أخرى يذكر مريم أولاً حيث يقول سبحانه: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

فالاثنان سواء فى خبرية الآية، وليس لأحد منهما تميز على الآخر، وهذا يدل على أنهما شريكان فى الآية، أى: المعجزة، فلا يمكن أن تتحقق الآية بواحد منهما.

فالآية فى مريم أنها ولدت بدون رجل، وما دام حدث منها هذا لابد أن تتعرض للمطاردة والاضطهاد، كما تخجل هى من نفسها؛ لأن هذه طبيعة فى الأنثى، فإذا كانت بنت شعيب ذهبت إلى موسى وهى تمشى على استحياء، فما بالك بمريم حين تأتى قومها وهى تحمل وليدها على كتفها دون أن يكون لها رجل!!.

وقد حفظ اللَّه مريم وابنها من كل سوء حتى أن خطيبها يوسف النجار الذى كان يجب أن يغار ويغضب لما حدث، أنزل اللَّه على قلبه السكينة والقبول، وظل فى خدمتها ورعايتها؛ لأن اللَّه يحول بين المرء وقلبه، فقلبه كان يجب أن يتغير من ناحيتها؛ لأن هذه طبائع البشر، ولكن اللَّه أنزل هذا الأمر عليه برداً وسلاماً، فلم يفعل شيئاً إلا أنه سألها سؤالاً واحدًا فقال لها: يا مريم أريد منك أن تقولى لى: هل رأيت فى حياتك شجرة تنبت بدون بذرة؟ فضحكت وقالت له: الشجرة التى أنبتت أول بذرة.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠].

آويناهما: من الإيواء، ومعناها أن إنساناً اضطرته الظروف واحتاج إلى مكان يعيش فيه فدبّر مكاناً أوى إليه.. ومريم فى هذه الحالة مضطرة ومضطهدة، وكل الناس ينظرون إليها نظرات الاستغراب والشك، فلابد أن يهيّئ اللَّه لها مكاناً تأوى إليه. وهذا المكان لابد أن تكون فيه مقومات الحياة، وأولها الهواء ثم الماء ثم الطعام. ونحن نعرف أن سطح الأرض يكون حارًا، ولكن إذا ارتفعت على جبل مثلاً تجد الحرارة أقل، فكلما ارتفعت عن سطح الأرض انخفضت درجة الحرارة.. فالجو المعتدل لا يكون إلا فى ربوة؛ لأنها تعلو عن سطح الأرض، وهى فى ارتفاعها أقل من الجبل فتكون مقبولة فى الحر وفى البرد؛ لأنها مكان متوسط الحرارة، هذا من ناحية الهواء. ومعنى ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ من أسباب القرار والاستقرار: الطعام، فلابد أن فى هذه الربوة زرعاً.

والمعين هو الماء - فالربوة فيها ماء أيضاً - حينما أراد ربنا سبحانه وتعالى أن يضرب المثل بالأرض التى تؤتى أكلها مرتين قال: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

❁❁❁

بشارة الملائكة لمريم

يقول تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥].

لقد كانت المرحلة الأولى بالنسبة لإعداد مريم: هى قول الحق سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]. وفيها عرفت طلاقة قدرة اللّه تعالى.

والمرحلة الثانية: هى معرفتها بحكاية زكريا ويحيى عليهما السلام، وتأكيد الحق سبحانه أنه اصطفاها على نساء العالمين، وكان ذلك إيناساً لها.

ثم تدخل مريم إلى مرحلة جديدة، وهى قول الحق تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾، والبشارة لا تكون إلا بخبر عظيم مفرح، وقد يتساءل واحد: ماذا يقصد الحق بقوله: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾؟

والإجابة هى أن الحق سبحانه علمنا ذلك فى قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧].

وهذا القول هو مجرد إيضاح وتقريب؛ لأنه لا يوجد عندنا أقصر من الأمر بكلمة ﴿كُن﴾؛ لأن طلاقة قدرته سبحانه تسبق نطقنا بالكاف وهى الحرف الأول ﴿كُن﴾، ولكنّ الحق سبحانه يوضح بشىء قريب لعقولنا نستطيع أن نستوعبه.

إن الحق سبحانه وتعالى إذا أراد أمرًا فإنه يقول له كن فيكون، وهنا قد يسأل سائل: لمن يقول الحق ﴿كُن﴾؟ إنه يقول للأمر، أى أن الأمر يكون موجوداً قبل نطق الحق به، لقد وجد الأمر بمجرد إرادة اللّه تعالى. إن الحق يقول للأمر: ﴿كُن﴾ فيكون، وذلك إيضاح أن مجرد الإرادة الإلهية لأمر ما، فإن هذا الأمر ينشأ، و ﴿كُن﴾ هى مجرد إظهار الأمر للخلق.

إذن.. فكلمة: ﴿كُن﴾ جاءت لتدل على أن الحق يأمر بإظهار الأمر الذى أراده سبحانه، هكذا نفهم معنى بشارة الحق سبحانه لمريم بكلمة منه.

ويقول الحق سبحانه: ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾.

ثلاثة أسماء: المسيح، عيسى، ابن مريم، ما معنى المسيح؟ قد يكون الممسوح من الذنوب، أو أن تكون من آياته أن يمسح على المريض فيبرأ، أو المسيح: المبارك. وعيسى هو الاسم والمسيح هو اللقب، وابن مريم هو الكنية.

وجاءت الثلاثة أنواع فى عيسى عليه السلام: ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا﴾. نحن فى حياتنا اليومية كثيرًا ما نسمع كلمة وجيه، والوجيه هو: ذو الجاه والشرف وقيل الكريم على من يسأله.

وكانت وجاهة عيسى عليه السلام فى الدنيا بنبوته وما أنزله اللّه عليه، وما

أعطاه من آيات ومعجزات كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص. وإذا كانت تلك وجاهة عيسى فى الدنيا، فلماذا نص الحق على وجاهته فى الآخرة ووصفه بأنه من المقربين؟!

الحق سبحانه وتعالى يعلمنا أن فتنة بعض الناس فى عيسى عليه السلام، واعتقادهم فيه وفى أمه الطاهرة البتول أنهما إلهان من دون اللَّه تعالى، فإن هذا الاعتقاد الباطل والقول الزور لا يؤثر فى مكانة عيسى عليه السلام عند ربه وخالقه؛ فإن للمغالِى جزاءه، والمغالَى فيه تنجيه رحمة العزيز الغفار. واقرأ قول اللَّه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦].

وقول الحق تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، و ﴿ٱلْمَهْدِ﴾ هو ما أُعِدَّ كفراش للوليد أى أنه يتحدث وهو طفل.

و ﴿وَكَهْلًا﴾ أى: فى حالة تقدم العمر به. ولقد أورد الحق سبحانه ﴿ٱلْمَهْدِ﴾ و ﴿وَكَهْلًا﴾ رمزين لشىء: هو أن عيسى ابن مريم من الأغيار؛ يطرأ عليه مرة أن يكون فى مهد، ويطرأ عليه مرة أخرى أن يكون كهلاً. وما دام فى عالم الأغيار فلا يجب أن تفتنوا فيه، وعلى ذلك لا يصح أن تقولوا: إنه إله أو ابن إله.

❁❁❁

ميلاد عيسى عليه السلام

اعتقد كثير من الناس أن مريم هى ابنة عمران، وأخت هارون كما وصفها القرآن؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ [مريم: ٢٨]، ولذلك لما ذهب صحابة رسول اللَّه ﷺ إلى اليمن قال لهم أهل اليمن: إنكم تقولون إن مريم بنت عمران، وتقولون إنها أخت هارون، مع أن بين موسى وعيسى مدة تبلغ أحد عشر جيلاً، فكيف يَتَأَتَّى هذا؟! وعجز الصحابة عن الإجابة، ولما عادوا قصُّوا القصة على رسول اللَّه ﷺ، فقال لهم النبى ﷺ: «ألا أخبرتموهم أنهم كانوا يُسَمَّون بأنبيائهم والصالحين قبلهم[(١)]».

أى: إنهم كانوا يتفاءلون بأسماء الأنبياء، فالمسألة تشابه فى الأسماء فقط، إنها بنت عمران ولكنه ليس عمران أبا موسى، وأخت هارون وليس هارون أخا موسى عليهما السلام.

فلما نذرتها أمها للخدمة ببيت المقدس، شاء الحق سبحانه وتعالى بعد أن كانت تُفرغ للبيت المقدس مكانا، أفرغت نفسها لخدمة البيت المقدس قيما، فتفرغت للقيم الدينية التى أُنشئ من أجلها البيت المقدس، حتى إنها هجرت أهلها وذهبت إلى مكان بعيد تخلو فيه بعيداً عن الناس؛ قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾ [مريم: ١٦].

وقوله تعالى: ﴿ٱنتَبَذَتۡ﴾ أى: ابتعدت، نبذت نفسها عن الناس وعن أهلها، والإنسان يأنس بأهله، ولكنها ابتعدت عن أهلها، واتخذت من دونهم حجابًا أيضا؛ لكن بُعْدَها هذا لا يمنع أن يمر عليها أحد، فاتخذت حجاباً تستتر به عمن يمر عليها فى هذا المكان؛ أى: أرادت أن تعزل نفسها عن دنيا الناس وعن أُنسها بهم؛ لأنها اكتفت بأنسها بالحق سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾ أى شرقى بيتها، أو شرقى البيت المقدس، واختارت جهة المشرق؛ لأنهم كانوا يتفاءلون بشروق الشمس؛ لأن سمة النور

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم [٩/٢١٣٥] عن المغيرة بن شعبة رضى الله تعالى عنه.

المادى أن يجعل الإنسان لا يتعثر فى الأشياء ويستطيع أن يسير فيه على هدى.

وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ [مريم: ١٧]، الحجاب هو ما يجعله الإنسان حاجباً له عن غيره، وحاجباً لغيره عنه.

وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧]. كلمة الروح لها إطلاقات متعددة فى القرآن، أول هذه الإطلاقات التى نفهمها: أنها قوام حياتنا المادية، فإذا نفخ فى الإنسان الروح يصير فى هذه المادة حس وحركة ونشاط وكل أجهزتة تعمل، قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧٢].

فهذه هى الروح التى تجعل المادة تحس وتتحرك، اللَّه تعالى يقول: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مريم: ١٧] وهو جبريل، وكلمة: ﴿فَتَمَثَّلَ﴾ تعنى أن هذه ليست صورته وليست حقيقته، ولكن حقيقته شىء مختلف من نورانية وشفافية، وغير ذلك من الأجنحة مثنى وثلاث ورباع، وحقائق أخرى، ولكنه لم يظهر لها على حقيقته وتمثل لها فى صورة بشر؛ لأنه لا يمكن أن يلتقى الملك بملَكيته مع البشر ببشريته، ولأن هذا له قانون وهذا له قانون، فإما أن يتمثل الملك فى صورة بشر، وإما أن الإنسان نفسه يُرقِّيه اللَّه؛ ليأخذ صفة الملائكية، كما رقَّى النبى محمداً ﷺ فى المعراج.

فليس من الممكن أن يتفاهم معهم الملك، إلا إذا تمثل فى صورة بشر وذلك من أجل الإيناس؛ لأن الناس لم يروا الملائكة، فربما لو رأوا الملك على صورته الحقيقية يحدث لهم رعب وفزع، فلابد أن يتمثل فى صورة بشر.

إذن.. تمثل جبريل لمريم فى صورة بشر من جنسها؛ لأنها لم تكن لتطيق النظر إليه وهو فى صورته الحقيقية.

ومعنى: ﴿سَوِيًّا﴾ يقال: فلان سَوِىُّ التكوين إذا كانت أبعاض جسمه منسجمة مع بعضها؛ فليست جبهته عريضة أو أنفه مفلطحًا أو ظهره مقوساً أو فيه عيب ظاهر؛ ولكنه بشر سوىّ أى: مستوى الأعضاء والأبعاض، وذلك للإيناس، وأيضاً ليثبت أن مريم عفيفة شريفة، بدليل أنها لما رأت هذا الإنسان السوى الوسيم الجميل قالت: ﴿إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨]. ومعنى: ﴿أَعُوذُ﴾ أى: ألتجئ إلى اللَّه سبحانه؛ لأنى أخاف أن تعتدى علىّ وأنا امرأة ضعيفة. وإذا استعذت باللَّه تعالى، فافهم أن الذى يحترم استعاذة إنسان بربه هو الإنسان المؤمن؛ فإن استعاذ أحد باللَّه تعالى أمامه يعفو عنه؛ لأنه لا يستطيع أن يجترئ على من استعاذ بربه.

وكلمة: ﴿أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ تعنى أن عندها أملاً؛ فحتى إن لم يكن هذا الرجل تقيا فرحمة ربها تقيها منه.

فماذا قال لها الملك؟ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾؛

أى أنا لست قادماً من تلقاء نفسى، ولكنى رسول من عند ربك إليك. لم يقل رسول اللّه تعالى؛ لأن الرب هو المتولى التربية، والذى تولى تربية شىء يصونه عن أى إفساد؛ ولأن الربوبية عطاء مادى، أما الألوهية فعطاء معنوى للقيم والعبادة. وكلمة: ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ كان المفروض أن يفهم منها أنها هبة، فليست مسألة أسباب، ولكن الأمر هبة من عند اللّه. كما كان يحيى عليه السلام هبة من اللّه للنبى زكريا؛ لأن زكريا كان قد بلغ من الكبر عتيًا وامرأته كانت عاقرا لا تلد، لكن فى مسألة مريم هناك أنوثة فقط بدون ذكورة.

وقوله تعالى: ﴿غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾: هناك ذكى من الذكاء، وزكى أى مطهر وصافٍ ونقى، وحين قال لها الملك: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾، كانت الفطنة تقتضى معرفة أنه هبة، وما دام هبة، فلا تسألى عن الأسباب.

فماذا كان رد فعل السيدة مريم عليها السلام؟ ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: ١٩] نحن نعرف أن التقاء الرجل بالمرأة له وسائل: الأولى: شرعها الخالق سبحانه وهى الزواج الشرعى بأركانه المعروفة، وهنا يكون مَسُّ الذكر للأنثى حلالاً؛ لأنها زوجته.

الثانية: الاتصال المحرم بين الرجل والمرأة، وهو الزنا، فإذا تم هذا الأمر بموافقة الأنثى فهو زنا، وفيه حكم شرعى، وإذا تم رغماً عنها فهو اغتصاب.

كلمة: «مسنى بشر» إذا جاءت فى القرآن فمعناها النكاح، واقرأ قول اللّه تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

فالمس بمعنى النكاح. والإمام أبو حنيفة رضى اللّه تعالى عنه لما وقف عند قول اللّه تعالى: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٤٣]. قال: ليس المراد اللمس أو الملامسة، ولكن المقصود هنا الجماع. فكلمة: ﴿لَٰمَسْتُمُ﴾؛ أى: جامعتم. وكلمة: ﴿أَنَّىٰ﴾ يُستفهم بها عن الكيفية، ومريم حين تحدثت منعت الكيفيات التى تعرفها من الزواج الحلال أو الالتقاء الحرام.

والبغى: هى التى تبغى الرجال، وتتخذ مكاناً معروفاً لممارسة هذا الإثم،

وهناك معنىً آخر للكلمة: ﴿بَغِيًّا﴾ أى: مبالغة فى البغى؛ وهو الظلم.

وبعد ذلك رد عليها الملك بقول اللَّه تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢١].

وقال تعالى: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ كما قال فى الرد على زكريا أيضًا؛ وكلمة هين وأهون بالنسبة للَّه تعالى لا تأتى على حقيقتها؛ لأن كلمة: هين معناها أن هناك أهون، وهذا بالنسبة للفعل حين يعالجه الإنسان؛ فهناك فعل صعب بالنسبة له وغيره أصعب، وأقل منه هين أو أهون؛ لأن الإنسان يفعل على قدر طاقته، ولكن ربنا لا يعالج، وإنما يقول للشىء: كن فيكون، ولكنه يكلمنا بالأسلوب الذى نفهمه، فيعرفنا أنه إن كان قد خلقنا من غير شىء، فإعادة خلقنا من أشياء أهون، وهذا بمنطقنا نحن، فهو سبحانه يخاطبنا على قدر عقولنا.

فخلْق عيسى عليه السلام من أم بدون أب، شىء هين على الخالق سبحانه. والحق سبحانه يريد أن يجعل خلق عيسى عليه السلام آية للناس، والآية تعنى الأمر العجيب الذى يخرج عن مألوف العادة والأسباب.

ونريد أن نقف وقفة تأمل وتدبر عند قول مريم عليها السلام: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾. فلو أنها سكتت عند قولها: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ﴾ لكان تساؤلها أمراً معقولاً، ولكن إضافتها ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ تثير سؤالاً: من أين أتت بهذا القول؟ هل قال لها أحد إنك ستلدين ولداً من غير أب؟ إن الملائكة لم تخبرها بذلك، لكن ذهنها انصرف إلى مسألة المس مباشرة.. لماذا؟ إنها فطرة وفطنة المعرفة فى التلقى عن اللَّه تعالى، عندما قيل لها: ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٥]. قالت لنفسها: ما دامت نسبته إلىّ فلا أب له؛ لذلك جاء قولها: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾؛ إذ لا يمكن أن ينسب الطفل للأم مع وجود الأب.

هكذا نرى فطنة التلقى عن اللَّه فى مريم البتول؛ لقد مر بها خوف عندما عرفت أن عيسى منسوب إليها؛ قالت لنفسها: إن الحمل بعيسى لن يكون بواسطة أب، وكيف يكون الحمل دون أن يمسسنى بشر، فقال الخالق القادر جل وعلا: ﴿كَذَٰلِكِ﴾ أى لن يمسك بشر، وكان من الممكن أن يقول لها: لقد نسبناه لك؛ لأنك منذورة لخدمة البيت، لكن الحق قال: ﴿كَذَٰلِكِ﴾ تأكيداً لما فهمته من أنها ستنجب عيسى دون أن يمسها بشر، وتتجلى طلاقة القدرة فى قوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أى: منتهيًا لا مناقشة فيه.

وقوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ [مريم].

﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ أى حملت به، ﴿فَانتَبَذَتْ﴾: بَعُدَت، ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾: أى بعيداً؛ لأنها شعرت بالحمل وخافت أن يَطّلع على سرها أحدٌ. وكلمة: ﴿فَأَجَآءَهَا﴾ أى جعلها تجىء؛ لأن جاء معناها جاء من نفسه بمحض إرادته، ولكن السيدة مريم دفعها المخاض إلى المجىء إلى جذع النخلة، أى أتى بها المخاض إلى جذع النخلة، والمخاض: هو الوجع الذى يصيب المرأة عند الولادة المباشرة ويسمونه «الطلق»، فحين جاءها المخاض أتت إلى جذع النخلة؛ لأن ألم الوضع يجعل صاحبته تمسك أى شىء حولها تستند إليه من شدة الألم، فربما جاءت إلى جذع النخلة تستند إليه، وفى الآية قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ ولم يقل: جذع نخلة مما يدل على أنها كانت نخلة معروفة، وجذع النخلة يطلق على الساق الذى يمتد من جذرها حتى الجريد.

لما حدث هذا الأمر لمريم، وأصبحت المسألة حقيقة واقعة من حمل ومخاض وولادة، حدث لها نوع من النزوع الانفعالى؛ لأنها فى البداية استغربت الأمر، وقالت كيف يكون لى غلام وأنا لم يمسسنى بشر ولم أك بغياً؟! وبعد ذلك حملت، والحمل فى بطنها مستور، ولكن عند الوضع سينكشف الأمر، ويرى الناس الغلام وتواجهها المشاكل، فهذا شىء صعب على النفس فى مثل هذا الموقف.

ولذلك تجد النزوع الانفعالى فى هذه الحالة فى قولها: ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣]. ﴿يَٰلَيْتَنِى﴾ هذا تمنٍّ، إنها تتمنى أن تكون قد ماتت قبل أن يحدث هذا الأمر، مع أن المُشَرِّع الحكيم نهانا أن نتمنى الموت، لماذا؟ قالوا: لأن تمنى الموت ورد حينما ادَّعى اليهود أنهم أبناء اللَّه وأحباؤه، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة وأن الدار الآخرة لهم خالصة عند اللَّه، حينئذ نزل قول اللَّه تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [البقرة].

أى إن كان ما تقولونه حقاً فى الآخرة لكم وحدكم، فتمنوا الموت إن كنتم صادقين فى ادّعائكم، وفى نفس الآية أكد الحق سبحانه أنهم لن يتمنوه أبداً؛ لأنهم أحرص الناس على حياة؛ ولذلك فلن يتمنوا الموت أبداً.

وقلنا: إن السيدة مريم هنا تمنت الموت، مع أن الرسول ﷺ قال: «لا

يَتمنَّينَّ أحدكم الموت من ضُرٍّ أصابه، فإن كان لابُدَّ فاعلاً فليقل: اللَّهُمَّ أحينى ما كانت الحياة خيراً لى، وتوفَّنِي إذا كانت الوفاة خيراً لي[1]»، إن تمنى الموت المنهى عنه يسبب حدوث ما تكره، فكأنك كرهت الحياة وتمردت على القدر فتمنيت الموت، لكن أن تتمنى الموت؛ لأنك تريد لقاء اللَّه وتخشى الفتنة فى دينك وأنك ستصير إلى خير مما تركت، فهذا موضوع آخر.

ثم يقول تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم].

﴿مِن تَحْتِهَآ﴾ بكسر الميم، وهناك قراءة: «فناداها مَن تحتها» بفتح الميم، وكلمة من تحتها: دلت على أن الذى ناداها هو الوليد الذى وضعته وهو عيسى عليه السلام، فقال لها: لا تحزنى. والحزن هنا ينشأ من أمرين: انقطاعها عن الناس، وأنها فى حالة ولادة ولم تجد أحداً يساعدها أو يرعاها أو يقدم لها شيئاً، فقال لها إن ربك جعل تحتك سريًا. والسريّ هو النهر الذى يجرى ماؤه زلالا.

وبالنسبة للطعام قال: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ فأعطاها سبحانه الطعام والشراب، وهذه منطقية مع احتياج الإنسان.

ومن المعلوم: إن عناصر استبقاء الحياة ثلاثة؛ مرتبة حسب أهميتها: منها الطعام ونحن فى العادة نأكل ثلاث مرّات فى اليوم، ونستطيع أن نصبر على الطعام شهراً؛ والماء أعلى من الطعام فى المرتبة، ولا نستطيع أن نصبر على شرب الماء إلا من ثلاثة أيام إلى عشرة على قدر ما فى الجسم من ماء، وأهم هذه المقومات الثلاثة هو الهواء حيث لا يستطيع الإنسان أن يستغنى عنه لحظة.

إذن. فالمسألة مرتبة حسب الأهمية، فمريم عندها عناصر استبقاء الحياة الثلاثة: الهواء موجود، والماء موجود؛ فقد جعل اللَّه تحتها سريًا أى ماء زلالا متدفقاً، والطعام من رطب النخلة التى أمرها بهز جذعها؛ ليتساقط عليها الرطب.

وهنا نقف وقفة: إن هز جذع النخلة شىء صعب؛ لأنك لو أتيت بأقوى رجل فى العالم ليمسك نخلة من جذعها ويهزها فلن تسقط عليه رطبة واحدة من رطبها؛ لأنه جذع ثابت، ولكن الحق سبحانه أراد أن يجمع بين شيئين هما: طلب الأسباب مع الاعتماد على المسبب، طلب الأسباب هو: هَزُّ النخلة مع أنها فى

(١) أخرجه البخارى [٥٦٧١] ومسلم [٢٦٨٠/ ١٠] عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

حالة مخاض ومتعبة ومتألمة، وجاءت إلى النخلة؛ لتستتر إليها، فكيف تهزها وهى فى هذه الحالة من الضعف والألم، مع أن أقوى الرجال لا يقدر على ذلك؟!

قالوا: لأن اللَّه تعالى يريد أن يبقى اتخاذ الأسباب مهما كان الإنسان ضعيفاً، فعليه أن يبذل جهده فى الأخذ بالأسباب، ثم يعتمد على رب الأسباب. والرطب هو التمر الناضج، وكلمة: ﴿جَنِيًّا﴾ تعنى أنه استحق أن يُجنى، أى إنه نضج واستوى. إذن.. لا بد من التوكل على رب الأسباب.

وقول الحق سبحانه: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾، ذكر الأكل قبل الشرب، بينما فى الرزق ذكر الشراب أولاً، ثم جاء بالطعام بعد ذلك فى قوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا . وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ . . .﴾؛ فذكر الشراب أولاً، ثم الطعام الذى سينزل من النخلة بعد ذلك؛ لأن هذا رزق، لكنْ فى الأمر بالانتفاع قال: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾؛ فذكر الطعام قبل الشراب؛ وذلك لأن الإنسان فى العادة لا يشرب إلا بعد تناول الطعام.

الحق سبحانه أعطى لمريم قوام الحياة المادية من طعام وشراب، ولكن بقيت الناحية المعنوية؛ لأنها حزنت وتمنت الموت من صعوبة هذا الموقف فكيف ستواجه قومها بهذه الفضيحة فى نظرهم ؟!

وهنا قال الحق سبحانه لها: ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾؛ وهذا معناه السرور، وكلمة قَرِّى أى: اسكنى، وسكون العين على مرأى واحد عند العرب، دليل على أن العين صادفت مرأى جميلاً جدًا لا يغنى عنه أى مرأى آخر؛ ولذلك تظل ناظرة إليه، فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول لمريم: لا تحزنى ولتقر عينك بما أنت فيه، فليس هناك أجمل ولا أفضل من أن يصطفيك اللَّه ويجعلك سيدة نساء العالمين، فأى سعادة وأى مكانة وأى شرف أنت فيه؟!

الحق سبحانه وتعالى يقول لمريم: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦]، أى: إنك إذا رأيت أحداً ستدخلين معه فى جدل؛ لأن المسألة التى أنت عليها لن تستطيعى أن تأتى بمبررات لها؛ لأن امرأة تحمل وتلد دون أن يمسها رجل؛ كلام غير مقبول عند الناس ولن يصدقوه، وسيتكلمون معك بسفاهة وجهل، فعليك بالصمت، ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ وإن رأيت أحداً من البشر وسألك عما أنت فيه فقولى: إنى نذرت للَّه صوماً عن الكلام فلن أكلم أحداً. فالصوم عند زكريا عليه السلام كان عن الكلام، وهنا أيضاً الصوم عن الكلام؛ لأن المعجزات كانت قريبة من بعضها.

وقول الحق سبحانه: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ بعض المشككين فى القرآن يقولون: كيف يستقيم الأمر بالصوم عن الكلام مع أن القرآن يقول لها: ﴿فَقُولِي﴾، أى يأمرها بالكلام وأن تقول لهم كذا وكذا؟ ونحن نقول لهم: يجوز أن هذه الكلمة هى التى تقطع بها مريم الكلام مع القوم، أو يجوز أن تكون الدلالة بالإشارة، والدلالة بالإشارات أقوى الدلالات وأعمها؛ ولذلك فالأخرس حين يكون فى بيئة تفهمه يستطيع أن يتفاهم مع الناس، ويفهم الناس منه ما يريد قوله عن طريق الإشارات، ويكون مثار حديثهم ونوادرهم.

ومريم يمكنها أن تشير إلى من يسألها بما يُفهم منه أنها صائمة عن الكلام.

وكلمة: ﴿إِنسِيًّا﴾ أى من الإنس؛ أمرها الحق سبحانه ألا تتكلم مع أحد من البشر؛ لأنها قد تتكلم مع جبريل؛ حتى تجد مخرجاً من هذا الموقف المحرج الذى هى فيه.

هنا نعود إلى الحديث عن المخاض، ونتساءل من الذى كلمها هذا الكلام من تحتها؟ قيل: إنه جبريل، وقيل: إنه عيسى عليه السلام. ولذلك حين رآها قومها وقد أَتَتْهُم بوليدها تحمله، وأنكروا عليها ذلك الأمر، أشارت إلى الوليد!! فكيف تشير إليه؟ لابد أنها علمت أنه سيتكلم، وعرفت هذا الأمر من كلامه لها حين ناداها من تحتها، وقال لها ألا تحزن وتأكل وتشرب وتقر عينًا، فحين تكلم الوليد تأكد لها أنها فى معجزة عظيمة، ولذلك وثقت تمام الثقة بأنها حين تشير إليه سيتكلم هو ويدافع عنها؛ لأن كلامها لن يقنع الناس ببراءتها مما حدث لها؛ لكنْ حين يتكلم عيسى عليه السلام وهو لم يزل في المهد، فمعنى ذلك أن هذه معجزة، ومادام الذى تكلم وليد معجزة، فالمعجزة كائنة فى أمه من باب أولى.

إذن.. قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَا﴾ ليس المقصود به جبريل، ولكن المقصود وليدها عيسى عليه السلام.

ثم يقول تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ فهى التى ذهبت به إليهم، فلم تتوارَ عن عيون القوم أو تهرب بوليدها إلى مكان بعيد، ولكنها ذهبت إليهم بنفسها؛ وذلك لأن معها الحجة والبرهان، ولأن موقفها سليم، وهى واثقة من تأييد اللَّه تعالى لها، فجاءت إلى قومها تحمل وليدها على صدرها، فلما رآها القوم على

هذه الحالة قالوا: ﴿يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا﴾. لأنهم يعلمون أنها غير متزوجة!!

يحكى: أن بعض المستشرقين سألوا الشيخ محمد عبده فى باريس عن حديث الإفك الذى تقوّله المنافقون على السيدة عائشة فقالوا له: بأى وجه قابلتْ عائشةُ قومَها بعد حديث الإفك؟ فقال لهم: بالوجه الذى قابلت به مريمُ قومَها حين جاءتهم تحمله!! أى بوجه الواثق من البراءة، وأن اللَّه لا يمكن أن يسلمها، أو يخذلها؛ ولذلك فالسيدة عائشة رضى اللَّه تعالى عنها لما ظهرت براءتها وأنزل اللَّه فيها قرآناً، قالوا لها: قومى إليه - أى: إلى النبى ﷺ - فقالت: واللَّه لا أقوم إليه. ولا أحمده ولا أحمدكما، ولكن أَحْمَدُ اللَّه الذى أنزل براءتى[1].

فكون مريم تأتى بوليدها إلى قومها فهذه دلالة على أنها واثقة أن الحجة ستوافيها بالوليد، وإلا فكان المفروض أن تخجل وأن تتوارى من القوم حتى لا يروها ومعها الوليد؛ لأنها واثقة من نصر اللَّه ومعونته.

وكلمة: ﴿شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا﴾؛ أى: لم يحدث مثله، أو أنه من الفرية وهى تعمُّد كذب، وقولهم ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾: مبالغة فى التعيير؛ لأنهم عرفوها عابدة قانتة فكيف يحدث منها ذلك؟! فهذا تقريع لها؛ لأن أباها لم يكن رجلاً سيِّئًا ولا أمها أيضاً، فكأن القوم استغربوا أن يحدث هذا من مريم وهى العابدة القانتة التى جاءت من أبوين كريمين مستقيمين، فكيف يحدث منها ذلك؟!

لما كثرت الأسئلة على السيدة مريم، وكثر الاستنكار من القوم، ماذا فعلت؟ قال تعالى: ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾ [مريم: ٢٩]. أى أشارت إلى وليدها، فكأنها تقول لهم: اسألوه! وهذا دليل على أنها عرفت أنه سيتكلم؛ لأنه سبق أن كلَّمها قبل ذلك، فاطمأنت على أن تحمله إلى القوم، ليس على أنه جسم الجريمة ودليل إدانتها، ولكنها تحمله على أنه دليل براءتها.

فلما أشارت إليه استغرب القوم وقالوا: ﴿كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾.

فهم لم يستبعدوا أن يتكلم الرضيع فقط، ولكنهم أنكروا الحديث معه، وقالوا هل نحن مجانين حتى نكلم طفلاً رضيعاً!!

لقد انبهروا انبهاراً فَتَّتَ فيهم القوى، وقوى اللَّدد والخصومة. حين ترى هذا لا تجد إلا الانبهار؛ فالحق أبلج والباطل لجلج. لقد كان الأمر بيدهم ففى توراتهم

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [٤٧٥٧] عن عائشة رضى الله تعالى عنها.

أن من يزنى يجب أن يُرجم، فلماذا لم يرجموا أم عيسى إذن؟ لابد أنهم صدموا بقوة جعلت موازين حقدهم تختل، هذه القوة هى كلام عيسى ابن مريم فى المهد: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا . . .﴾ الآية.

هذه المفاجأة جعلت الجبار فيهم ينهار وتخور قواه، هذا من ناحية اليهود، فماذا عن النصارى؟ إن رضيعًا يتكلم فى المهد، هو معجزة بكل المقاييس، فكيف تخلو كل الأناجيل التى بين أيدينا الآن من هذه الواقعة؟!

إنه طفل تكلم فى المهد، وكان لابد أن تكون الكلمة التى قالها مدروسة بعناية، ولا يمكن أن تُنسى. لابد أن تكون كلمة رائعة، من طفل يتكلم، فكيف لا تأتى هذه الكلمة فى الأناجيل؟! إن جنود اللَّه سبحانه وتعالى هم الذين حفظوا الكلمة مُذْ قالها عيسى عليه السلام وحتى تقوم الساعة. إن الأناجيل لم تذكر ذلك؛ لأنها لو ذكرت ذلك لسألناهم ماذا قال؟ سيكون الرَّد دون مواربة: لقد قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾؛ وهذا ينفى أنه إله.

وبينما القوم على هذه الحال، من مفاجأتهم بما تحمل مريم، ثم من استنكارهم الكلام مع طفل رضيع، نطق عيسى عليه السلام قائلاً لهم: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ [مريم].

فكأنه يقول لهم: لا تتكلموا أنتم ولكن أنا الذى سأتكلم. وأول شىء قاله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾؛ واستهلاله كلامه بعبوديته للَّه تعالى، دليل على أنه قد يقال إنه ليس عبداً وإنه إله أو شريك للَّه سبحانه، فأول كلمة نطق بها أنه عبد للَّه تعالى؛ ولذلك تجد أن أهل الكتاب يقولون عنه إنه تكلم فى المهد، فإذا سألتهم ماذا قال حين تكلم؟ تجدهم يصمتون ولا ينطقون بما قاله أبدًا؛ لأن كلامه ينفى معتقدهم.

لم يقل: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾؛ فقط، ولكنه أضاف شيئًا آخر فقال: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾؛ ولكن كيف يؤتيه الكتاب وهو مازال طفلاً فى مهده؟ قالوا: كأن هذا أمراً ثابتاً ومفروغاً منه، ومعنى ذلك أن هذا الوليد أهل لأن يتحمل أمانة السماء والأرض، وجعله نبيًا ذا سلوك قويم ولا يمكن أن يكون كذلك وفيه أى مطعن، وفوق ذلك: جعله مباركاً أينما كان، فهذه الصفات هى أنه عبد اللَّه، آتاه الكتاب والكتاب لم يأت بعد ولكنه سينزل فى المستقبل؛ وذلك لأن هذا الوليد يتكلم عن الحق سبحانه فلابد أنه ملقَّن، والذى يلقنه هو الذى سيؤتيه هذه الأشياء وهو الحق

سبحانه وتعالى، وبعد ذلك قال أيضاً: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١].

ومعنى أوصانى بالصلاة والزكاة، أى أن الحق سبحانه وتعالى شرع له هذه العبادات والشرائع.

ثم يقول تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم].

البر بالوالدين معروف فهو بارٌّ بوالدته، بمعنى أنه حين يكبر ويعرف القصة أنه وُلِدَ ولد من غير أب دون أن يمس أمَّه بشرٌ، فهذه الأحداث لا تسبب له أى ضيق، أو غرابة؛ لأنه هو نفسه الدليل على صدق هذه المعجزة، والدليل لا يشكك فى المدلول، أى إياكم أن تظنوا أنى سأكون عاقاً لوالدتى؛ بل سأكون بارًّا بها عطوفاً عليها، ومعنى ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾: إن الحق سبحانه وتعالى حين يرسل رسولاً لا بد أن يجعله ليّن الجانب؛ لأنه سيأتى؛ ليخرج الناس مما ألفوه من الفساد، ومعنى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾. أى: يوم ميلادى كان سلاماً؛ لأن هذا الحدث لو وقع فى أسرة أخرى كان من الممكن أن يقتلوها، ويقتلوا وليدها، ولكنها مرت بسلام، والسلام عليه أيضاً يوم يموت، وهنا خصّ يوم مولده ويوم موته بالسلام؛ لأن الميلاد مقابله الموت، والسلام عليه يوم موته؛ لأنهم سيأتون؛ ليأخذوه بغية صلبه وقتله، وبعد ذلك يُشَبَّه لهم أنهم صلبوه وقتلوه، ولكن الله تعالى نجاه منهم ومن كيدهم ورفعه الله سالماً من كل سوء.

وذكر السلام على نفسه يوم يبعث حيًّا؛ لأنه ليس هناك رسول سيسأله الله هذه الأسئلة إلا عيسى عليه السلام، وهى قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة]. والحق سبحانه يعلم أن عيسى عليه السلام لم يقل لهم إلا ما أمره الله عز وجل به، ولكن هذا تقريع لمن يزعمون أنهم أتباعه، وقد حرَّفوا رسالته وجعلوه إلهاً من دون الله.

ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾ [مريم].

كلمة: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أى: الذى تقدم، وهو قصة عيسى ابن مريم، قول الحق: أى يقولها اللَّه قول حق، أى هذه قصة عيسى ابن مريم يخبرنا بها الحق سبحانه وتعالى، أو أن معنى قول الحق أى أنه ضد الباطل، فالمعنيان متفقان: ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ أى إنه قول اللَّه الحق سبحانه، أو أنه الحق الذى ضد الباطل ﴿ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾: أى يشكون، فكأنه يخبرنا أنهم سيشكون فى هذا الكلام وَيَتَقَوَّلون فيه الأقاويل، والمعنى: اتركوا هذه الأقاويل الباطلة، وخذوا الكلام من الحق سبحانه؛ لأن قول الحق هو الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكما قلنا كلمة: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أى: الذى تقدم أمره من أول قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾ إلى هنا. ثم ذكر قضية هامة جدًا فقال سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾. ولكن لماذا بدأ بموضوع الولد؟ قالوا: لأن قضية الشريك تُنفى بأوَّلية العقل؛ لأن الشريك للَّه ماذا يفعل معه؟!

اتخاذ الولد قضية منفية بالنسبة للَّه سبحانه وتعالى؛ لأنه إن كان لاستدامة الحياة والذكر فى الدنيا، فاللَّه تعالى لن تذهب حياته حتى يكون موصولاً فى ولده؛ لأنه هو الحى الذى لا يموت، وإن كان من أجل العزوة والاستعانة، فاللَّه تعالى لا يحتاج إلى معونة أحد لأنه المعين سبحانه، وهو الصمد الذى يحتاج إليه كل أحد ولا يحتاج هو إلى أحد. لذلك قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

ومعنى قوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾؛ لأن هذه الأشياء كلها مخالفة للنواميس، فإياك أن تتعجب أن يفعل اللَّه سبحانه ذلك مع زكريا ويحيى عليهما السلام لعطب الآلة، وإياك أن تتعجب من أن الطفل الذى كان فى المهد صبيًا قد تكلّم.

كل هذه نواميس خارقة للعادة نأخذها كلها فى إطار: ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ أى: تنزيهاً له؛ لأنه إذا أراد شيئاً لا يعالجه بعلاج وعمل وإنما يعالجه بقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ والفعل كن مُكَوَّنٌ من حرفين فقط، فحين يقول الحق لشىءٍ: كن؛ يكون فى الحال.

❁❁❁

كلام عيسى عليه السلام فى المهد

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٦] والكلام معناه: اللفظ الذى ينقل قول الناطق إلى السامع، وقول الحق:

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾ معناه: أن المواجه بكلام عيسى عليه السلام فى المهد هم الناس، ونفهم من قوله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾ سر وجود آية معجزة وهبها اللّه تعالى لعيسى عليه السلام، وهو أن يكلم الناس وهو طفل فى المهد؛ لأن المسألة تعلقت بعرض أمه وبكرامتها وعفتها، فكان لابد من آية لتمحو عجب الناس حين يرونها وقد ولدت بدون زوج، وهذه المسألة لم نجد لها وجوداً فى الأناجيل الموجودة بأيدى النصارى، مع أنها مسألة كانت يجب أن تُذكر من كَتَبَةِ الإنجيل؛ لأنهم يمجدون نبيهم، وكان من الواجب ألا يغفلوا عن هذا الشىء العجيب؛ ذلك أن كلام طفل فى المهد أمر عجيب وكان لابد أن يكون محل حفظ وتداول بين الناس. إن الطفل عندما يتكلم فى المهد فلن يقوم الناس برواية واقعة كلامه فى المهد فقط، بل سيحفظون ما قاله ويرددون قوله؛ لأن العجيب أن يتكلم وهو فى المهد، ويحرص الناس على أن يعرفوا ماذا قال؟ والكلمة التى قالها عيسى عليه السلام فى المهد لا تسعف زاعمى التبعية لعيسى عليه السلام فيما يدّعون؛ لأن الكلمة الوحيدة التى نطق بها أول ما نطق قال: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾، فأخفوا هذه المسألة كلها لماذا؟ رغم أن كلام طفل فى المهد يكون أمراً عجيباً، وما دام أمرًا عجيباً ولافتاً للأذهان؛ فلابد أن يكونوا قد سمعوا ما قاله ووعوه. ومادام قد سمعه القوم ووعوه فلابد أنهم تناقلوا ما قاله. وهو قد قال فى أول ما نطق: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾، وبهذه الكلمة ينتفى ادّعاء ألوهية عيسى عليه السلام.

إن الحق سبحانه يقول: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾، ونحن نعرف أن الكلام فى المهد، أى: وهو طفل. وكهل: أى بعد الثلاثين من العمر؛ أى فى العقد الرابع، والبعض قد قال إن الكهولة بعد الأربعين من العمر، وقد حدثت له فى رواياتهم ما أسموه حكاية الصلب قبل أن يكون كهلاً، فإذا كان قد تكلم فى المهد فينبغى أن يتكلم وهو كهل، ولما كانت حادثة الصلب أو عدم الصلب أو الاختفاء عن حسّ البشر ـ ليسموها كيف شاؤوا ـ المهم أنها تمت قبل أن يكون كهلاً.

إذن.. فلابد أن يأتى وقت يتكلم فيه عيسى ابن مريم عندما يصير كهلاً. وأيضاً قول الحق سبحانه: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ إلا أنه كان فى المهد طفلاً، وكهلاً أى ناضج التكوين، وبذلك نعرف أن عيسى ابن مريم فيه أغيار وفيه أحوال، فإذا كنتم تقولون: إنه إله فهل الألوهية وهو فى المهد، هى نفسها الألوهية وهو فى الكهولة؟!

لو كانت الألوهية فى المهد فهى ناقصة؛ لأنه لم يستمر فى المهد وحدثت له أغيار. وما دام قد حدثت له أغيار فهو محدَث، وما دام محدَثًا فلا يكون إلها.

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه فى عيسى ابن مريم: ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ مقصود بها عمله أى الحركة السلوكية لماذا؟ لأنه لا يكفى أن يكون مبلغاً ولا يكفى أن يكون حامل آية؛ بل لابد أن يكون على السلوك الإيمانى.

❁❁❁

كذب اليهود فى دعواهم على مريم

قال الحق سبحانه: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦]. أى: أن اللَّه قد أخذهم بذنوبهم؛ بداية من نقضهم الميثاق، وكفرهم بآيات اللَّه، وقتلهم الأنبياء بغير حق، وادعائهم أن قلوبهم ﴿غُلْفٌۢ﴾ [النساء: ١٥٥] لا يدخلها الإيمان ولا يخرج منها الضلال، ثم كفرهم وقولهم على مريم البهتانَ العظيمَ؛ فكأن قول البهتان على مريم لم ينشأ إلا من منطلق الكفر.

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾؛ علمنا مما سبق ما قالوه عن أم عيسى الصديقة مريم، وهم بقولهم البهتان يناقضون أفهامهم، ويناقضون عقولهم، ويناقضون واقعاً شاهدوه. لقد كانت مسألة ميلاد عيسى عليه السلام من «أم» دون «أب» شيئاً معجزاً يناقض ناموس الكون فى أن كل تكاثر إنسانى ينشأ من لقاء رجل بامرأة، أو ذكر بأنثى. ولكن الحق سبحانه شاء أن يرد على مادية اليهود، الذين أرادوا أن يروا اللَّه جهرة ولم يؤمنوا به غيباً مطلقاً. وظن اليهود بسخافة عقولهم أن اللَّه إن رُئِىَ بأعينهم جهرة كان إلهاً يستحق أن يُعبد، وما علموا أنه لو كان مرئياً جهرة لخلقه لما استحق أن يُعبد؛ لأن المرئى تقدر عليه عين الرائى لتميزه، فيصبح المرئى مقدوراً عليه، واللَّه تعالى ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

إذن.. فمن غباء اليهود أنهم جعلوا المقتضى للإيمان مانعاً من الإيمان، إن المقتضى للإيمان أن الحق سبحانه لا يقدر أن يحيط به أحدٌ من خلقه أبداً، وهم طلبوا إدراك حاسة من حواس الإنسان له. ومعنى ذلك أنهم طلبوا أن يكون اللَّه مقدوراً لعيونهم، حينما قال اليهود ذلك البهتان ناقضوا عقولهم فى الفهم، وناقضوا الواقع الذى شهدوه.

❁❁❁

تعليم اللَّه تعالى لعيسى عليه السلام

يقول الحق سبحانه عن عيسى عليه السلام: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٨].

حين نسمع قوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ نفهم أن المقصود بها: الكتاب المنزل. والحق سبحانه قد أتْبَعَ ذلك بقوله: ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾. فلابد لنا أن نسأل إذن: ما المقصود بالكتاب؟ فهل كان المقصود بذلك الكتاب: الكتب المتقدمة؛ كالزبور والصحف الأولى كصحف إبراهيم وموسى عليهما السلام؟ قد يكون ذلك صحيحاً. ومعنى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أن الحق قد علّمه ما نزل قبله من زبور داود، ومن صحف إبراهيم، وبعد ذلك توراة موسى الذى جاء عيسى ناسخاً لها. وبعض العلماء قد قال: أُثر عن عيسى عليه السلام أن تسعة أعشار جمال الخط كان فى يده. وبذلك يمكن أن نفهم ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أى: القدرة على الكتابة. وما المقصود بقوله تعالى: ﴿وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ بعد قوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

كلمة «الحكمة» عادة تأتى بعد كتاب منزل، مثال ذلك قول الحق: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٤].

آيات اللّه المقصودة هنا: هى القرآن الكريم، والحكمة هى كلام الرسول ﷺ؛ فالرسول له كلام يتلقاه ويبلغه، ويعطيه الحق أيضاً الحكمة وهى سنته ﷺ. أما التوراة التى علمها اللّه لعيسى عليه السلام، فكما نعلم أن مهمة عيسى عليه السلام أنه جاء ليكمل التوراة ويكمل ما أنقصه اليهود من التوراة، فالتوراة أصل من أصول التشريع لعصره والمجتمع المبعوث إليه، فهو كما قال اللّه تعالى فى القرآن الكريم: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩].

إن كلمة «رسول» تحتاج إلى دليل، فليس لأى أحد أنْ يقول: أنا رسول من عند اللّه، إلا إذا قدّم بين يدى دعواه معجزة تثبت أنه رسول من اللّه.

إذن.. فالمعجزة تلزم المنكر الذى يتحدى وتفحمه؛ لأنه لا يستطيع أن يأتى بمثلها؛ ولذلك قلنا: إن من لزوم التحدى أن يجعل اللّه تعالى معجزة الرسول من جنس ما نبغ فيه القوم؛ لأن الحق لو جاء لهم بشىء لم يدرسوه ولم يعرفوه، فالرد منهم يكون للرسول بقولهم: إن هذا أمر لم نروض أنفسنا عليه، ولو رَوَّضْنَا أنفسنا لاستطعنا أن نفعل مثله؛ لذلك يرسل الحقُّ الرسولَ - أىَّ رسول - بمعجزة من جنس ما ينبغ فيه القوم المرسَل إليهم. وقوم عيسى كانوا مشهورين بالحكمة والطب. لذلك كانت الآيات من جنس ما نبغوا فيه، الحكمة والطب، ثم تتسامى لأن الذى يطبّب جسماً ليس له علاقة بموت إنسانٍ، فإذا ما مات إنسان فقد خرج

الميت عن دائرة علاج الطبيب، ولذلك رقى اللّه آية عيسى أنه يشفى المرضى ويحيى الموتى أيضاً، وهذا تَرَقٍّ فى الإعجاز، وقد أخبر اللّه سبحانه وتعالى عن عيسى ابن مريم عليهما السلام أنه قال لقومه: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

إن كلمة: ﴿أَخْلُقُ﴾ تحتاج إلى وقفة، وكذلك ﴿الطِّينِ﴾ و «الهيئة» و ﴿الطَّيْرِ﴾. أخلق مأخوذة من الخلق. والخلق هو إيجاد شىء على تقدير أنه شىء قبل أن يوجد، فأنت فى ذهنك أن تأتى به على هذه الحالة، فإن كان يأتى على غير تقديرك، فليس خلقًا إنما هو شىء جزافى. فإن كان سيأخذ قطعة من الطين ويصنع منها أى شىء، فهذا ليس خلقاً؛ الخلق هو المطلوب على تقدير، والخلق على تقدير فيه إيجاد من عدم، إنه شىء كان معدوماً فَوُجِدَ.

إن أول فرق بين خلق اللّه وخلق الإنسان أن خلق اللّه سبحانه وتعالى يكون من عدم، وخلق الإنسان من موجود، وإن كان الاثنان على تقدير. وأيضاً خلق اللّه سبحانه وتعالى يعطيه سرا، لا يستطيع البشر إعطاءه لصنعته؛ فاللّه عز وجل يعطيه سر الحياة، والحياة فيها نمو وفيها تكاثر.

إذن.. فالخلق إيجاد على تقدير، هذا الإيجاد يوجد من معدوم، والمعدوم موجودة مادته، هذا فى خلق الإنسان. أما فى خلق اللّه، فاللّه يخلق من معدوم لا توجد له مادة، البشر حين يوجدون شيئاً يوجدونه جامداً على ما هو عليه لا حياة فيه، ولا يمكن أن يتأتى منه التكاثر لإيجاد مثله. لكن اللّه يخلق من الشىء ذكراً وأنثى، ويعطيهما القدرة على التناسل.

❁❁❁

من معجزات عيسى عليه السلام

قال تعالى: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩].

إن كل إنسان يستطيع أن يصنع من الطين تماثيلَ كهيئة الطير لكن اللّه خصَّ عيسى بمعجزة أنه يخلق من الطين كهيئة الطير وينفخ فيه، وقد نسأل فيمَ ينفخ؟ أينفخ فى الطير أم فى الطين؟ أم فى الهيئة؟ إن قلنا: إن النفخ فى الطين بعدها صار طيراً، فيكون النفخ فى الطين كالنفخ فى الطير وجاء فى آية أخرى أنها نفخ فى الهيئة وذلك فى قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ

﴿ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾ [المائدة: ١١٠].

إن النفخ ﴿فِيهَا﴾ تكون للطين أو للطير، والنفخ ﴿فِيهَا﴾ تكون للهيئة، وهناك آية أخرى بالنسبة للسيدة مريم البتول: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢]. إن النفخ هنا فى الفرج. فى الآية الأخرى قال: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١]، أى فى مريم عليها السلام. فمرّة يقول: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ أى فى الفرج، ومرة يقول: ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾ أى فيها هى، والقولان متساويان.

وهنا فى هذه الآية نجد أن الإعجاز ليس فى أن عيسى صَنع من الطين كهيئة الطير؛ لأن أى إنسان يستطيع أن يفعل ذلك، فكأنه حينما قال: ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ كأنه صار طيراً من الطين فأى إنسان يمكن أن يفعلها؛ ولكن: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ تجمع بين الشكل وصناعة الطين كهيئة الطير، فيكون طيرًا بإذن اللّه. نعم إن عيسى لم يكن ليجترئ ويصنع ذلك كله إلا بإذن اللّه. لقد جاءت كلمة: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ من قول عيسى وعلى لسانه. فهذا اعتراف منه بأن ذلك ليس من صناعته.

وكأنه عليه السلام يقول لقومه: «إن كنتم فُتنتُمْ بهذا فكان يجب أن تفُتنوا بإبراهيم من باب أولى، حينما قطع الطير وجعل على كل جبل جزءًا منهن ثم دعاه».

ومن معجزاته أيضاً ماورد فى قول اللّه تعالى: ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩]. لماذا هذين المرضين بالذات؟ لأنهما كانا من الأمراض المستعصية فى ذلك العصر. والأكمه هو الذى وُلِدَ أعمى، أى لم يحدث له العمى بعد ميلاده. والبرص هو أن تَبْيَضَّ بقعة من الجلد وإن كان صاحبه أسود. ثم تظهر بعد ذلك بقع متناثرة فى جميع الجسم بيضاء اللون، مما يدل على أن الجلد صار أبرص. وهو مرض صعب لم يكن باستطاعتهم أن يداووه. فلما أرسل اللّه تعالى عيسى ابن مريم إلى قومه أعطاه اللّه سبحانه وتعالى الآية من جنس ما نبغوا فيه وهو الطب، وجاء لهم بآية فيه هى إبراء ما كانوا عاجزين عنه.

وبعض من الذين يحاولون أن يقربوا بين المعجزة وعقول الناس يقولون: إن هذه المعجزات إنما هى سبق زمن، بمعنى أنه من الممكن أن يتوصل الإنسان إلى

أن يكتشف علاجاً لهذه الأمراض، ولهؤلاء نقول: لا. لنأخذ كل أمر بأدواته؛ إن عيسى ابن مريم عليهما السلام كان يبرئ بالكلمة والدعوة، فمهما تقدم العلم فلن يستطيع أن يبرئ المرض بالكلمة والدعوة، إنما سيأخذون أشياء ويقومون بتحليل هذه الأشياء، وخلط الكيماويات وإجراء الجراحات، لذلك تظل المعجزة التى جاء بها عيسى ابن مريم عليهما السلام معجزة؛ لأنه كان يبرئ بالكلمة والدعوة!!

❁❁❁

شريعة عيسى عليه السلام

وقوله: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران: ٥٠].

وقد قلنا إن ﴿وَمُصَدِّقًا﴾ تعنى أن ما جاء به عيسى ابن مريم مطابقًا لما جاء فى التوراة. وقلنا: إن ما بين يدى الإنسان هو الذى سبقه، أى: الذى جاء من قبله وصار أمامه، ومادام عيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة فى زمانه، وكانت التوراة موجودة فلماذا جاء إذن؟ جاء بأحكام جديدة، ويتضح ذلك فى قول الحق سبحانه وتعالى فى سورة آل عمران قول عيسى عليه السلام لقومه: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾.

إذن.. فليس الأمر هو التصديق فقط؛ ذلك أن عيسى عليه السلام جاء ليحلّ بعضاً من الذى حرمته التوراة.

وقد يقول قائل: إذا كانت الكتب السماوية تأتى مصدقة بعضها بعضًا، فما فائدة توالى نزول الكتب السماوية؟ إن الإجابة هى: إن فائدة الكتب السماوية اللاحقة أنها تذكّر من غَفَلَ عن الكتب السابقة، هذا فى المرتبة الأولى. وثانياً تأتى الكتب السماوية بأحكام تناسب التوقيتات الزمنية التى تنزل فيها هذه الكتب، هذه هى فوائد الكتب السماوية التى توالى نزولها من الحق سبحانه على رسله؛ إنها تذكّر من غفل، وتعدّل فى بعض الأحكام. ومن المسلمات أننا جميعاً نفهم أن العقائد لا تبديل فيها وكذلك الأخبار والقصص، لكن التبديل يشمل بعضاً من الأحكام التى تناسب عصر الرسالة وما بعدها لحين إرسال رسول آخر وهكذا.. إلى أن ختمت الرسالات برسالة المصطفى ﷺ؛ ولهذا كان مما أرسل به عيسى ابن مريم عليهما السلام ما جاء فى قوله: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ ونحن نعرف أن القوم الذين أرسل اللّه عيسى ابن مريم إليهم هم بنو إسرائيل، والتحريم والتحليل يكون لحكمة من اللّه.

إن لله حكمة فيما يحلل وحكمة فيما يحرم، وليس بالضرورة أن كل شيء يحرمه الله يكون ضارًا. قد يحرم الله لسببٍ آخر، وهو تأديب الخلق؛ فيأمر بالتحريم؛ ولذلك لا يجب أن نسأل عن الضرر فيما حرم الله، فقد يعيش المؤمن دنياه ولم يثبت له ضرر بعض ما حرم الله، فإن تساءل أحدٌ لماذا حرم الله ذلك؟ نقول له: من الذى قال لك إن الله حين يحرم يحرم الشيء الضار فقط. إن الحق سبحانه يحرم الضار ويحرم بعض ما هو غير ضار؛ دليل ذلك قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠].

❁❁❁

دعوة عيسى إلى وحدانية الله

وجماع دعوة عيسى والأنبياء كلهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٥١]. إذا اجتمع الرسول والمرسل إليهم فى أنهم جميعاً مربوبون لإله واحد؛ فهذا يعنى الوحدانية المطلقة لهذا الإله؛ ذلك أن هذا الإله هو الذى تولى تربيتهم، والتربية تقتضى رعاية قيومية، وعيسى ابن مريم يقرّ بعبوديته لله، وكأنه يقول وأنا لم أصنع ذلك لأكون سيّدًا عليكم، ولكننا جميعًا مشتركون فى العبودية لله: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾

ومعنى: ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أى أنه صراط غير ملتوٍ؛ لأن الطريق إذا التوى انحرف عن الهدف، والطريق المستقيم الذى يجمع الناس هو عبادة الله وحده.

فإذا ما كان الخلق جميعاً يتوجهون فى عبادتهم إلى إلهٍ واحد، فهذا يعنى الاتفاق، لكن الاختلاف يحدث بين البشر كلما بعدوا عن المركز؛ ولذلك لا تجد للناس أهواء ولا تجدهم شيعاً إلا إذا ابتعدوا عن المركز الجامع لهم، والمركز الجامع لهم هو العبودية للإله الواحد، وما دامت عبودية لإله واحد ففى هذا جمع للناس بلا هوى أو تفرق.

إن قضية عبوديته عليه السلام لله تعالى قد حُسِمَتْ من البداية، وهى قضية القمة: إنه عبدُ الله، والقضية الثانية هى قضية الرسالة ونقْل مراد الله وتكليفه إلى خلق الله؛ حتى يؤسسوا حركة حياتهم على مقتضى ما أنزل الله عليهم، ومن الطبيعى أنه عندما يأتى الرسول بمنهج من عند الله؛ ليدعو الناس جميعاً إلى اتباع هذا المنهج، ويحدد حركة حياتهم بـ «افعل كذا»، و«لا تفعل كذا»؛ فقد يجد فى التكليف مشقة. لماذا؟ لأن الأمر بـ «افعل كذا» يُلزمه بعملٍ قد يشق عليه، والنهى بـ

«لا تفعل كذا» يبعده عن عمل كان يحبه. والمرءُ فى الأحداث بين أمرين: عمل يشق عليه، فيجب عليه أن يجتنبه، وعمل يستهويه، فيجب عليه أن يقترب منه، والمنهج قد جاء من اللّه ليقول للإنسان «افعل ولا تفعل».

وآفة الناس أنهم لا يحددون هدفهم؛ لذلك يعتبرون غير الهدف هدفاً، وما دام هناك من يعتبر غير الهدف هدفاً، فلابد من حدوث فوضى وضلال، فالذى يعتبر أن الحياة هى الهدف، فهو يريد أن يحقق لنفسه أكبر قدر من اللذة فيها، أما الذى يعرف أن الهدف ليس هو الحياة، إنما الحياة مرحلة، فنسأله ما الهدف إذن؟ فيقول: إنه لقاء اللّه فى الآخرة. هذا الإنسان المؤمن سيكون عمله من أجل هذا الهدف. لكن الضال الذى يرى الدنيا وحدها هدفه، ولا يؤمن بالجنة أو النار، فهو مغرور بضلاله، إنه يقبل على ما تشتهيه نفسه ويبتعد عما يتعبه، ولكن إذا كان يعرف أن الهدف ليس هو الدنيا، وإنما الهدف فى السعادة التى سوف يحصل عليها فى الآخرة، فإنه سيسعى من أجل بلوغ هذا الهدف.

إذن.. ما يفسد سلوك الناس هو جهلهم بالهدف، وحين يوجد الهدف؛ فالإنسان يحاول أن يعرف العمل الذى يقربه من الهدف فيفعله، فهذا هو الخير. أما الذى يبعد عن الهدف ويفعل عكس الموصل إليه، فهذا هو الشر. وإذا كان الأمر كذلك، والمسألة هى فى تحديد الهدف.

❁❁❁

حوارى عيسى عليه السلام

يريد الحق سبحانه وتعالى أن يوضح للمؤمنين بالنبى محمد ﷺ قدر الخلاف بينهم وبين أهل الكتاب؛ ليعرف كل مؤمن أن إيمانه برسالة النبى الخاتم تعطيه منزلة الإيمان الرفيعة، وذلك على قدر صدق نيته، وأداء واجباته الدينية بما فيها من عبادات، ومعاملات، وينزّه الحقُّ عز وجل المؤمنين برسالة النبى محمد عليه الصلاة والسلام عن أن يكونوا فى مستوى قوم موسى عليه السلام؛ هؤلاء القوم الذين تعنتوا مع موسى عليه السلام، وسألوه أسئلة تدل على مدى إغراقهم فى المادية، وضعف إيمانهم بالغيب، لقد خاطب اللّه عز وجل المؤمنين بقوله: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُـُٔلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨].

إن الحق، جلّ وعلا، لم يضع المسلمين موضع التشبيه المباشر بقوم

موسى، فالحق جل وعلا ينزّه المسلم أن يكون متشبهاً بواحد من القوم الذين ظنّوا أن التمايز بالسلالة؛ ذلك أن بعضًا من قوم موسى قد ظنوا خطأ، ووهمًا، وتحريفًا للتوراة أنهم متميزون عن بقية خلق اللّه؛ لمجرد أنهم أبناء ليعقوب عليه السلام.

إن دين الإسلام الذى جاء به محمد رسول اللّه ﷺ لا يضع تمايزاً لأحد فوق أحد إلا بالإيمان، والعمل الصالح.

إن الذين طالبوا رسول اللّه أن يأتيهم بالآيات والمعجزات، هم الذين لم يقنعوا بما آتاهم اللّه من قرآن مجيد يقنع ذوى الألباب، وقد أجرى اللّه عز وجل سنّةً فى الخلق مع الرسل؛ فإذا طالب قوم الرسول المبعوث إليهم بآية معجزة، فإن الحق يرسل هذه الآية، فإن لم يؤمنوا استأصلهم بالعذاب؛ مثلما حدث مع قوم ثمود؛ فإنّه أرسل إليهم فطلبوا آية، فأعطاهم اللّه معجزة واضحة وهى الناقة فكفروا بها، فكان ما كان من العذاب الذى أنزله اللّه عليهم. وقد طلب الحواريون من عيسى ابن مريم عليه السلام أن ينزل عليهم مائدة من السماء فأنزلها الحق، وحذرهم من الكفر بعد ذلك حتى لا يعذبهم عذاباً لا يعذبه لأحد من العالمين واقرأ قول اللّه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [المائدة]. إن محمداً ﷺ يتلقى الأمر من ربه بأنْ يذكر للناس قصة الحواريين أتباع عيسى ابن مريم عليه السلام عندما صاروا أصفياء، فسألوا عيسى ابن مريم عليه السلام أن ينزل عليهم طعاماً من السماء فقال عيسى عليه السلام لهم: إن كنتم مؤمنين باللّه فخافوه وأطيعوا أوامره ونواهيه، ولا تطلبوا حججاً أو آيات غير التى بعثنى اللّه بها.

لكنهم قالوا: إننا نريد أن نأكل من هذه المائدة؛ لتطمئن قلوبنا بما نؤمن به من قدرة اللّه، ونعلم عن رؤية مادية صدق ما أخبرتنا به عن الحق سبحانه، ونشهد لك بهذه المعجزة. ولبى عيسى ابن مريم طلبهم ودعا اللّه قائلاً: يا مالك كل أمر، أنزل علينا مائدة من السماء يكون يوم نزولها عيداً للمؤمنين برسلك المتقدمين والمتأخرين، معجزة تؤيد بها الدعوة لمنهجك. واستجاب الحق وأنزل مائدة من

السماء وتوعد الحق بالعذاب أىَّ جاحد بهذه النعمة، بعد أن أنزلها. إن من يطلب آية للإيمان بعد أن نزل القرآن الكريم فهذا دليل على عدم تمكن الإيمان من قلبه.

وشاء الحق سبحانه وتعالى ألا يعذب أمة محمد رسول اللَّه ﷺ ما دام رسول اللَّه فيهم وما داموا يستغفرون اللَّه كلما ألمُّوا بذنب، وفى ذلك جاء قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

إن الحق تبارك وتعالى قد فضل أمة محمد عليه الصلاة والسلام على الأمم، ووعد ألا يعذبها ورسول اللَّه ﷺ فيها، ذلك أن منهم من سوف يؤمن، ويستغفر الحق تبارك وتعالى، ولذلك لم يشأ أن ينزل الآيات التى طلبها بعض المتعنتين؛ لأن الحق عندما ينزل آية ثم يكذبها أحد بعد ذلك، فإن الحق يأخذه أخذ عزيز مقتدر.

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى لأمثال هؤلاء المتعنتين: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُـُٔلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨].

إذن.. فأى سؤال عن آية غير الذى أنزله الحق على رسوله الكريم محمد ﷺ فذلك كُفْر؛ لأن الذى يسأل عن آيات غير القرآن الكريم يستبدل بذلك الكفر بالإيمان، وكأنه يريد أن يترك الإيمان إلى الكفر، ومن يفعل ذلك فقد ضل سواء السبيل. فسواء السبيل أى: فى وسط طريق الإيمان يتخللهم الإيمان بالابتعاد عن المعاصى؛ لأن السير فى وسط الإيمان يتيح لهم الحماية والوقاية والأمان من كل الجهات، فكأن مراد اللَّه عز وجل من منهج الإيمان أن يتمكن الإيمان من نفس الإنسان فيكون قوياً بالإيمان. وبعد تلك الآيات الكريمة التى تحدث فيها الحق سبحانه وتعالى عن مريم وعيسى عليهما السلام، قال الحق سبحانه: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ۖ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

لقد ذكر نبى اللَّه عيسى ابن مريم عليهما السلام القضية الإيمانية الجامعة المانعة أولاً، حين قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

إن نبى اللَّه عيسى أوضح لهم بما لا يقبل الجدل، أنا وأنتم سواء فى عبوديتنا للَّه الواحد وأنا لم آتِ لأتميز عنكم بشىءٍ فيما يتعلق بالعبادة؛ فاللَّه رب لى ورب لكم، والصراط المستقيم هو منهج عبادة اللَّه الحق، إننا حين نسمع لفظ: الصراط

المستقيم، فإننا نتخيل على الفور الطريق الموصلة إلى الغاية وهى أقصر الطرق الموصلة إلى الغاية، إننا نعرف أن الطرق تُصنع لتُوصل إلى الغاية. وحين نسمع كلمة: ﴿صِرَٰطٌ﴾ فلنا أن نفهم على الفور الغاية التى نريد أن نصل إليها، فالحق سبحانه يقول: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

أى أقصر شىء يوصل إلى غاية مطلوبة، ومادام هناك طريق لغاية ما، فلابد لنا أن نحدد الغاية أولا، وتحديد الغاية إنما يهدف إلى إيضاح السبيل أمام الإنسان؛ ليسلك الطريق الموصل إلى الغاية، وهكذا يقول لهم نبى الله عيسى عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ﴾ [آل عمران: ٥١].

والعبادة هى إطاعة العابد لأمر المعبود. ولا تظن أن العبادة كما يريد خصوم الإسلام أن يضللوا الناس، بأنّ الإسلام قد جاء فقط للصلاة والصوم والزكاة، وأن يقتصر الإسلام على أركانه، وداخل جدران المسجد فقط، فينفصل الإنسان عن ربه بين أوقات الأركان التعبدية. إن الأركان التعبدية لازمة؛ لأنها تشحن الطاقة الإيمانية للنفس، حتى تقبل على العمل الخاص بعمارة الدنيا؛ فالإسلام منهج حياة متكامل وكل حركة تؤدى إلى إسعاد الناس وعمارة الكون وفق منهج الله تعالى فهى عبادة، والأركان التعبدية هى تقسيم اصطلاحى وضعه العلماء فى الفقه، فجعلوا بابًا للعبادات وبابًا للمعاملات، لكن علينا أن نعرف أنّ كل شىء يأمر الله به فهو «عبادة»، إلا أن العبادة أنواع فمنها ما يصل العابد بالمعبود جل جلاله؛ ليأخذ الشحنة الإيمانية من خالقه، ومنها ما يتصل بعمارة الكون.

هكذا نعرف العبادة، وهكذا نستوعب قول الحق سبحانه وتعالى الذى أرسل به نبيه عيسى عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

وبعد ذلك يقول الحق: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ [آل عمران: ٥٢]. لقد حسم نبى الله عيسى عليه السلام أمر العقيدة حينما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ [آل عمران: ٥١]؛ إن فى ذلك تحذيرًا من أن يقول أتباع عيسى أى شىءٍ آخر عن عيسى، غير أنه عبد لله، مأمور بالطاعة والعبادة له سبحانه؛ لأنه وضع أمامهم المنهج فقال: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٥١].

وقول الحق: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ [آل عمران: ٥٢] يدل على أنّ كل صاحب دعوة، وكل صاحب مهمة، وكل صاحب هدف؛ لابد أن يكون يقظَ الإحساس؛ لأن صاحب الدعوة الدينية يُخرج الناس من الظلمات إلى النور. وقد

يقول قائل: ولماذا يعيش الناس فى الظلام ولا يتجهون إلى النور من أول الأمر؟ وتكون الإجابة: إن هناك من يستفيدون من وجود جموع الناس فى الظلمات فالظالم الذى يأخذ حق الآخرين اغتصابًا، يخاف من رجل الدعوة الذى ينهاه عن الظلم ويدعوه إلى الهداية وإلى منطق العقل، ومثل هذا الظالم عندما يسمع كلمة المنطق والدعوة إلى الإيمان لا يحبّ من ينطق هذه الكلمة؛ لأنه يكره الكلمة وقائلها.

لذلك فالداعية مأمور من اللّه بأن يكون يقظاً.. لماذا؟ لأنه إن اهتدى بكلماته أناسٌ وسعدوا بها، فإنه يُغضِب أناساً آخرين؛ ذلك أن المجتمع الفاسد يوجد به المستفيدون من الفساد.

إن نبى اللّه عيسى عليه السلام عندما أعلن منهج الحق وجد أنصار الظلم، وأنصار البغى، غير مستعدين للإيمان باللّه؛ لذلك أحس منهم الكفر. لقد كان مليئاً باليقظة والانتباه؛ فحينما بعثه اللّه تعالى ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، أحسّ منهم الكفر؛ ولذلك أراد أن ينتدب جماعة؛ ليعينوه على أمر الدعوة فقال: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إن الدعوة تحتاج إلى معركة والمعركة تحتاج إلى تضحية، والتضحية تكون بالنفس والنفيس؛ لذلك لابدّ أن يستشير من يجد فى نفسه العون على هذه المسألة. إنه لم ينادِ أفرادًا محددين، إنما طرح الدعوة؛ ليأتى الأنصار الذين يستشرفون فى أنفسهم القدرة على حمل لواء الدعوة، ولتكون التضحية بإقبال النفس استجابة لدعوته عليه السلام قوله: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

كلمة: «أنصار» هى جمع «نصير». والنصير: هو المعين لك على بغيتك، وعندما قال عيسى عليه السلام: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؟ كانت ﴿إِلَى﴾ فى السؤال تفيد الغاية وهو اللّه تعالى، أى من ينصرنى نصراً تصير غايته إلى اللّه وحده، لا إلى أهواء البشر؟ إنه لا يسأل عن واحد يدخل تحت لواء الدعوة من أجل الغنيمة، أو يدخل آخر من أجل الجاه أو غير ذلك. إنه يسأل عن أهل العزم؛ ليكون كلٌّ منهم متجهاً بطاقته إلى نصرة اللّه وحده.

إذن.. فعندما قال عيسى عليه السلام: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؟ فكأنه كان يسأل من يعيننى معونة غايتها اللّه؟ وعندما نأخذ هذا المعنى تكون الإجابة: لقد أخذت المعنى على قدر ذهنى؛ لأن مرادات اللّه فى كلماته لا تتناهى، فقد يأتى واحد آخر يفهم أن معنى النصير هو مَن ينصر، وسوف نرى النصر فى الإيمان وكيف يأتى.

إن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن النصر فى الإيمان قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

إذن.. فالنصر منّا للّه بأن نعبده حق عبادته بالتزام أمره واجتناب نهيه، وهذا مراد اللّه، ولذلك يأتى النصر مرة من المؤمن لربه، ومرة من الرّب لمربوبه لذلك فمعنى سؤال عيسى عليه السلام من ينصرنى مظلوماً فنصره إلى اللّه، إذن فهناك معسكران: معسكر الإيمان ومعسكر الكفر. لقد سأل عيسى من يكون نصيرى إلى اللّه؟ وحينما سأل وقال: من أنصارى إلى اللّه؟ أى أنه يسأل عن الذين بإمكانهم أن ينضموا إلى غاية اللّه، وهكذا نعرف هذا المعنى على ضوء ما قاله الحق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾.

إذن.. هناك نصر من المؤمن لربه، وهناك نصر من اللّه للمؤمن، وهكذا يكون سؤال عيسى ابن مريم عليهما السلام ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ قد أفاد المعنيين.

وكانت الإجابة: ﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢]. و ﴿ٱلۡحَوَارِيُّونَ﴾ مأخوذة من الحوَر وهو شدة البياض فى العين، وهم جماعة أشرقت فى وجوههم سيم الإيمان، فكأنّ وجوههم مشرقة بالنور. ونور الوجه لا يقصد به البشرة البيضاء، ولكن نور الوجه المؤمن يكون بإشراقة الإيمان فى النفس؛ ولذلك يصف الحق المؤمنين برسالة رسول اللّه محمد ﷺ فيقول: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ [الفتح: ٢٩].

فحتى لو كان المؤمن أسود اللّون فإن له سمةً على وجهه.. كيف؟ ولماذا؟ لأن الإنسان مكوّن من أجهزة ومكوّن من ذرّات، والأجهزة لكلٍّ منها مطلوبات؛ وكل جهاز فى الإنسان له مطلوب محدد، وحين تتجه كل الأجهزة إلى اللّه تعالى، ملتزمة أمره ونهيه، فإن الذى يحدث للإنسان هو انسجام كل أجهزته، وما دامت الأجهزة منسجمة، فإن النفس تكون مرتاحة، ولكن عندما تتضارب مطلوبات الأجهزة تكون الملامح مكفهرّة.

إذن.. فعندما قال عيسى عليه السلام: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾.

إذن.. فالحواريون قوم لهم إشراقات انسجام النفس مع الإيمان، أو هم قوم بيض القلوب، معانيهم بيضاء ومشرقة. ومنه كلمة «الحور» وهو شدة البياض فى العين. والنبى ﷺ سمّى بعضًا من صحابته حوارىّ رسول اللّه. إنهم الذين جعلهم رسول اللّه معه طوال الوقت. وحين قال الحواريون: ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾؛ إن الواحد

منهم يريد نصرة اللّه فينضم إلى كل ناصر للمنهج، وهذا يتطلب أن يعرف كل منهم المنهج، ونحن نعرف مقومات النصرة للّه وهى الإيمان.

ولذلك قال الحواريون: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾. ولماذا يشهد الرسول لهم؟ لأنّ المفروض فى الرسول أن يبلّغ القوم بلاغاً عن اللّه فيشهد عليهم، كما قال اللّه سبحانه وتعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

ولنا أن نلحظ أن الحواريين آمنوا أولاً؛ لأنه أمر غيبى عقدى فى القلب، ثم من بعد ذلك أسلموا؛ لأن الإسلام خضوع لمطلوبات الإيمان وأحكامه؛ ولذلك فقولهم: ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ هو طلب منهم للرسول عيسى عليه السلام: أن بلّغنا كل مطلوبات الإسلام، وقلْ لنا قواعد المنهج افعل ولا تفعل. إنهم قالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾، وما داموا قد أعلنوا الإيمان باللّه، فهم آمنوا بمن بلغهم من اللّه، والمطلوب من نبى اللّه عيسى عليه السلام أن يشهد بأنهم مسلمون، ولا تتم الشهادة إلا بعد أن يبلّغهم كل الأحكام.

وقالوا من بعد ذلك: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣]. وقد يكون إعلانهم الإيمان إيماناً برسالة سابقة، ولكن لنا أن نعرف أن الإيمان هنا مقصود به ما جاء به عيسى من عند اللّه؛ لأن كل رسول جاء برسالة من اللّه. ومعنى أنّ رسولاً يجىء أنّ هناك أمرًا أراد اللّه إبلاغه للناس. ونحن نعلم أنّ العقائد لا تغيير فيها وكذلك الأخبار والقصص. ولكنّ الأحكام هى التى تتغير. فكأن إعلان الحواريّين هو إعلان بالإيمان بما جاء سابقاً على رسالة عيسى وبما جاء به عيسى عليه السلام، فهو إيمان كامل.

❁❁❁

من نعم اللّه على عيسى وأمه عليهما السلام

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَإِذْ

﴿تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠].

وفى هذه الآية الحق سبحانه وتعالى يسرد نعمه على عبده ورسوله عيسى عليه السلام، وسرد النعمة على الرسول ليس المقصود منه تنبيه الرسول إلى النعمة، فالرسول يعلم النعم جيدًا؛ لأنها جرت عليه، ولكنه تقريع لمن رأى هذه الأحداث والنعم ولم يلتزم الإيمان بالله بعدها. إن النعمة أجراها الله على عيسى وأيده الله بما يزكى رسالته إلى قومه، فكأنها كانت نعمة أولاً عليه؛ لأنه مصطفى مختار مُؤَيَّدٌ، وهذا الذكر للنعمة تقريع لمن رآها وعرف أنها كفيلة بأن تثبت صدق عيسى فى بلاغه عن ربه ولم يؤمن.

ونلاحظ أن هذه الآيات والنعم تنقسم إلى قسمين:

الأول: قسم يقنع أصحاب العقول والألباب والفكر والمواجيد النفسية.

الثانى: وقسم يقنع القوم الماديين الذين لا يؤمنون بملكوت الله فى غيب الله.

والقسم الأول: الذى يقنع أصحاب العقول والألباب: هو تعليم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل. والقسم الثانى الذى يقنع الماديين: هو الأمور المادية الحسية التى يعلم من يراها أنها لا يمكن أن تجرى على يد بشر؛ كأن يخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيها فتكون طيرًا، إحياؤه عليه السلام الموتى بعد موتهم، وإبراء الأكمه والأبرص؛ إن هذه الآيات خرق للناموس المادى، ولذلك يتبع الحقُّ كل واحدة منها بذكر كلمة ﴿بِإِذْنِي﴾ أى: أن هذه المعجزات لم تكن لتحدث لو لم يأذن بها الله، ولم يذكر الحق ذلك بالنسبة للآيات الأخرى؛ لأنها أمر ظاهر ومعروف، وقد فعل الحق ذلك حتى يكون الأمر واضحًا أمام كل إنسان ممن يحبون عيسى ويؤمنون به وبمن أرسله. فعل الحق ذلك حتى لا يُخدع قوم عيسى فى هذه الآيات ويظنّوها مزية مطلقة له، ولكنها مجرّد آيات معجزات لإثبات صدق عيسى عليه السلام.

إن الحق يفعل ذلك لإثبات صدق الرسول فى البلاغ عنه، وهذا الإثبات مشروط بشروط: أولها: أن يكون النبوغ قد بلغ درجة قصوى فى المجال الذى تحدث فيه تلك المعجزة، ومثال ذلك خرق الحق لناموس العصا ـ وهى فرع من الشجرة ـ وجعل موسى عليه السلام يلقيها فإذا هى حية تسعى؛ إن ما أجراه الله على عصا موسى عليه السلام لم يكن سحرا ولكنه نقلها من جنس إلى جنس، وكان قوم عيسى عليه السلام قد نبغوا فى الطب، ولم يجرؤ أحدهم على أن يشفى بكلمة واحدة الأكمه والأبرص أو أن يخرج الميت من موته إلى الحياة، وعلى

الرغم من تقدمهم فى الطب لم يستطع أحدهم أن يفعل ذلك، وإن قال قائل: لقد تقدم الطب وصرنا نرقّع قرنية عين الأعمى فيبصر، أو أننا بسبيل اكتشاف الدواء الذى يعيد لون البشرة إلى الأبرص. فإننا نقول: إن ما نراه فى زماننا هو سَبْق ابتكار، لا خرق اقتدار كما فعل عيسى بإذن من اللّه، لقد فعل عيسى عليه السلام ذلك بكلمةٍ لا بإجراء عمليات جراحية ولا بتحضير أدوية وكيماويات.

والحق يُسرِّى عن عبده ورسوله عيسى عليه السلام بذكر هذه الآيات، لكنَّ الكافرين من قوم عيسى عليه السلام قالوا: إنها سحر. إن المبلّغ عن اللّه لا يخشى إلا اللّه، وهو يحبُّ أن يؤمن معه كل الناس، إلا أنهم جحدوا بها وكفروا، وقالوا كما قص الحق سبحانه فى القرآن الكريم: ﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

إن الحق سبحانه خلق الخلق، وجعل الإيمان أمراً فطريا فيهم، ثم تأتى الغفلة فتبهت جزئية، وتأتى غفلة ثانية فتبهت جزئية أخرى، وتأتى غفلة ثالثة فتصير إلى بهتان.

وفى الحديث الذى رواه حذيفة بن اليمان رضى اللّه تعالى عنه قال: حدثنا رسول اللّه ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر؛ حدثنا أن الأمانة نزلت فى جِذْر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة، ثم حدثنا عن رفع الأمانة قال: «ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت[١]، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل المَجْل[٢] كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبرًا[٣] وليس فيه شىء - ثم أخذ حصًى فدحرجه على رجله - فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدى الأمانة، حتى يقال: إن فى بنى فلان رجلاً أميناً، حتى يقال للرجل: ما أجلده! ما أظرفه! ما أعقله! وما فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان. ولقد أتى علىَّ زمان وما أبالى أيّكم بايعت، لئن كان مسلماً ليردنه علىَّ دينُه، ولئن كان نصرانياً أو يهودياً ليردنّه علىَّ ساعيه وأما اليوم فما كنت لأبايع منكم إلا فلاناً وفلانًا[٤]».

وفى حديث آخر عن رفع الأمانة والفتنة، قال حذيفة: كنا عند عمر فقال:

---

(١) الوكت: هو الأثر اليسير فى الشئ المعجم الوسيط [٢/ ١٠٥٣].

(٢) المَجْلة: قشرة رقيقة يجتمع فيها ماء من أثر العمل أقوى من الوكت المعجم الوسيط [٢/ ٨٥٥].

(٣) انتبر الجُرحُ: تورم مرتفعاً ظاهراً المعجم الوسيط [٢/ ٨٩٧].

(٤) رواه الترمذى [٢١٧٩] وصححه الألبانى [١٧٧٠] عن حذيفة رضى الله عنه.

أيكم سمع رسول اللَّه ﷺ يذكر الفتن؟ فقال قوم: نحن سمعناه. فقال: لعلكم تعنون فتنة الرجل فى أهله وجاره؟ قالوا: أجل قال: تلك تكفّرها الصلاة والصيام والصدقة، ولكن أيكم سمع النبى ﷺ يذكر الفتن التى تموج موج البحر؟ قال حذيفة: فأسكت القوم. فقلت: أنا. قال: أنت، للَّه أبوك! قال حذيفة: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأىّ قلب أُشربها نُكِتَ فيه نكتة سوداء، وأىّ قلب أنكرها نُكِتَ فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفاء فلا تضرّه فتنة ما دامت السموات والأرض. والآخر أسود مربادًا كالكوز مُجَخِّيا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أُشرب من هواه». قال حذيفة: وحدّثته: أن بينك وبينها بابًا مغلقاً يوشك أن يكسر. قال عمر: أَكَسْرًا، لا أبا لك! فلو أنه فُتِحَ لعله كان يعاد. قلت: لا. بل يكسر وحدثته: أن ذلك الباب رجل يُقتل أو يموت حديثا ليس بالأغاليط».

هكذا كان حديث الرسول ﷺ عن رفع الأمانة وضياع المناعة الإيمانية من النفس البشرية. والحق أراد للمناعة الإيمانية أن تبقى فى عباده؛ لذلك أرسل الرسل حتى تتكون المناعة ويكبح المجتمع جماح كل فرد تحدث له الفتنة. لذلك عندما كان يظهر فساد فى الأرض يرسل الرسول حتى يعيد البريق إلى النفس اللوامة، ويحيى فى المجتمع القدرة على أن يتناسق السلوك فيه على ضوء منهج اللَّه، ولذلك نجد أن المقاومة التى تحدث للرسل إنما تحدث من الذين يستمتعون بالفساد وبآثار الفساد.

إن منهج الهداية حينما يأتى فهو يأخذ بأيدى المظلومين، ويغضب منه الظالمون والأقوياء الجبابرة، ولذلك يهاجمون الرسل ويحاربون منهج اللَّه. ذلك أن منهج اللَّه سيقطع عليهم سبل الفساد الذى يُدِرُّ عليهم عائداً هو فى نظرهم كبير، ولذلك رأينا صناديد قريش وقد تصدَّوا للدعوة، فمحمد ﷺ جاء بالمساواة بين كل البشر؛ لقد كانوا يعرفون أن مجرد النطق بالشهادتين: أشهد أن لا إله إلا اللَّه، وأشهد أن محمدًا رسول اللَّه؛ يعنى فقدانهم لسلطان إرهاب الناس والقبائل، فلو كانت المسألة مجرد كلمة تقال ويبقى الأمر على ما هو عليه لقالوها، ولكنها كانت كلمة تغير من الأمر سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، ولا يبقى من جبروت لأحد؛ فكل الناس سواسية.

لذلك تصدّى صناديد قريش لدعوة الإسلام، ولذلك نجد أن كل رسول يأتى فإن له من يعاديه من الجبابرة ومن أصحاب الفساد فى الأرض مصداقاً لقول الحق: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢].

ولذلك أراد الحق أن يجعل صيحة الإيمان فى الجاهلية تأتى أولاً إلى آذان

سادة العرب جميعاً، وهم قريش الذين لا يجرؤ أحد من العرب على التعرض لهم، ولم يجعل الحق النصر يأتى لمحمد وهو فى مكة حيث كانت مقام السيادة؛ لأن النصر لو كان قد حدث ومحمد ﷺ يحيا بين قومه فى مكة؛ لقال قائل: لقد حدث النصر من قوم ألفوا السيادة وأرادوا أن يسودوا العالم كله، لا الجزيرة العربية وحدها؛ لذلك جعل الحق مقام النصر ينبع من المدينة المنورة. لقد جاءت الصرخة أولاً فى آذان السادة، ثم التف حولها المستضعفون فى الأرض الذين لا يستطيعون حماية أنفسهم، ثم هاجروا ونصرهم اللَّه من بعد ذلك على الأقوياء.

لذلك فنحن نجد أن كل داع إلى اللَّه يأتى إنما يريد إقامة منهج اللَّه فى الأرض؛ حتى لا يأتى الران على القلوب، بسبب الغفلة التى حدثت بالبعد عن منهج اللَّه. وذلك ما يغضب منه الجبابرة والمنحرفون الذين يريدون السيادة على العالم بفكرهم. ونجد أن الداعى إلى اللَّه الذى ليس له عدو يصيبه بالسوء هو داعٍ حظه من منهج النبوة ضعيف، وميراثه من النبوة ليس بكثير!! والكافرون بعيسى عليه السلام عندما رأوا قوة الآيات التى جاء بها عيسى عليه السلام.. ماذا قالوا؟ ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ [الصافات: ١٥].

ومعنى ذلك أن معجزات عيسى عليه السلام قد أحنقتهم، وملأت مشاعرهم بالخيبة. لقد جاء مثل هذا القول من قوم يكرهون منهج الحق، وعلى ذلك يكون كفر الكافر نعمة، يدعم بها الحقُّ الداعىَ إليه؛ لأن مقاومة الإيمان تظهر قوة المؤمن بالعقيدة التى يؤمن بها.

إذن.. فكلما رأينا داعياً إلى اللَّه يقاومه الناس ويقذفونه بالسباب؛ فهذا دليل على صدق الداعى، ما دام متمسكاً بما يؤمن به.

والحق جل وعلا يقول: ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١].

والوحى بمعناه العام هو: الإعلام بخفاء، أى: أن الحق ألهمهم أن يؤمنوا برسالة عيسى المبلِّغ عن اللَّه. والحق أوحى إليهم أى: أعلمهم بخواطر القلب التى أعلم بها أم موسى أن تلقى ابنها فى اليم وهو غير الوحى للرسول؛ فالوحى إلى الرسول هو الوحى الشرعى بواسطة رسول مبلغ عن اللَّه. إن وحى اللَّه إلى أم موسى أو إلى الحواريين هو استمرار خاطر إيمانى، يلتفت بعده الموحى إليه ليجد الواقع يؤيد ذلك، وعندما لا يصادم إلهام القلب الواقع، ولا يجد الإلهام ما يصادمه من نفس الإنسان، فهذا لون من الوحى، أى هو إعلام بخفاء، كأن يتوقع الرجل

مقدم صديق من سفر، أو لوناً من الطعام يشتهيه فيجده على المائدة؛ إذن.. فالإلهام وارد من اللَّه لخلق اللَّه ما دام لا يتصادم بشيء مع النفس أو الواقع؛ لأن الإلهام الذى يقابل صداماً ليس من اللَّه. كذلك أوحى اللَّه للحواريين أن يؤمنوا به وبرسالة عيسى عليه السلام، وبمجرد مجيء عيسى وسماعهم أنه رسول من اللَّه، أعلنوا الإيمان به وصاروا من خُلَصَائه. ولنذكر بما قلناه مراراً: حين ترى «إذ» فلتفهم أن معناها: «اذكر إذ»، أى تذكر وقت الحدث الذى قال فيه الحواريون: نحن آمنا بعيسى نبيًّا من عند اللَّه. وأشهدوه على إيمانهم.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾، فلنا أن نلاحظ جيدًا أن الحق سبحانه وتعالى يؤكد دائماً فى الكلام عن نبيه عيسى عليه السلام أنه عيسى ابن مريم، ذلك ما يقرره اللَّه، أما عن تأييد الحق سبحانه لعيسى ابن مريم بروح القدس؛ فذلك لأن المسائل التى تعرض لها المسيح عيسى ابن مريم هى مسائل تستدعى أن تظل روح القدس تسانده؛ ففى ميلاده تعرض لإشكالات، وفى دعوته تعرض لإشكالات، وكل هذه الأمور تحتاج إلى مساندة من روح القدس؛ لذلك يقول: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٣].

إذن.. كل المشاكل التى تعرض لها عيسى ابن مريم كانت مشاكل كبرى ففى الميلاد تعرض لمشكلة؛ لأنه وُلِدَ على غير طريقة ميلاد الناس، وتلك مشكلة اتهمت فيها أمه، وجاء القرآن ونزهها وبرأها ووضع الأمر فى نصابه الحق. وفى رفعه، كان الأمر مشكلاً؛ فلقد أرادوا أن يقتلوه ولكن رفعه اللَّه إليه. إذن.. فهو عليه سلام يوم ولد، ويوم يموت، ويوم يُبعث حيًّا.

❁❁❁

مائدة السماء

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ١١٢].

كأن عيسى عليه السلام قد قال للحواريين: عليكم بتقوى اللَّه عز وجل، فلا تسألوه هذه الآية؛ لأنكم ما دمتم أعلنتم الإيمان فأنتم لا تقترحون على اللَّه آية لإثبات صدق رسوله، وحسبكم ما أعطاه اللَّه لى من آيات لصدق رسالتى؛ إذ عليكم أن تلزموا أنفسكم بالمنهج الذى أعلنتم إيمانكم به ولكنَّ الحواريين أجابوا: ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ١١٣].

وكأنهم أرادوا أن يتشبهوا بإبراهيم - خليل الرحمن - ﷺ عندما سأل اللَّه عزَّ وجل عن كيفية إحياء الموتى؛ ليطمئن قلبه. لقد آمنوا بعلم اليقين ويريدون الآن الانتقال إلى عين اليقين، لذلك سألوا عن المائدة التى صارت من بعد ذلك حقيقة واضحة. وهكذا نعرف أن هناك فارقًا بين أن يؤمن الإنسان لذاته، وبين أن يشهد بالإيمان عند غيره. ويقول الحق عن استجابة عيسى لطلب الحواريين: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [المائدة: ١١٤].

وقول الحق: ﴿مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لا يعنى أن هناك موائد منصوبة فى الأرض؛ ذلك أن الكون كله مائدة فيها من الخير الكثير، والإنسان منا عندما يكد ويكدح ويستخرج من الأرض الزرع ويرعى أنعامه، فإنه يأتى إلى زوجه وأولاده بمخزون قد يكفيهم لمدة عام من دقيق وأرز وعسل وسكر وزيت. وقد تأتى الزوجة بشىء من الطير فتذبحه وتطهو معه الخضروات.

إذن.. فالكون كله مائدة اللَّه المنصوبة التى يأخذ منها كل إنسان على قدر عمله. وكلمة ﴿مَآئِدَةً﴾ لا تطلق إلا على الخوان[1] وعليه طعام، أما إن كانت بغير طعام فنطلق عليها: خوان؛ لأن المائدة مأخوذة من مادة الميم والألف والدال والمائدة تميد أى تضطرب من كثرة ما عليها من أشياء، أو هى تعطى مما عليها من أشياء، وصارت هذه المائدة عيدًا أى يوما يحب الناس أن يعود عليهم مثله؛ لأنهم يسرون به، فالعيد هو ما يعود علينا بالخير وبما يسر وقد توقف العلماء عند قول الحق سبحانه: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾. وتساءلوا: كيف كان هذا القول، وخصوصاً أن معناه الظاهرى: أيقدر ربك؟ وكيف للحواريين أن يقولوا ذلك بالرغم من أنهم أشهدوا عيسى عليه السلام بأنهم مسلمون؟!.

وقال العلماء أيضاً: إن من يتكلم فى اللغة عليه أن يكون متبصراً باشتقاقات الألفاظ، واستعمالات الألفاظ، وسمات الألفاظ، وكلمة: ﴿يَسْتَطِيعُ﴾ تطلق ويراد منها الاستجابة وكأن معنى سؤالهم: أيستجيب اللَّه لإرسال مائدة لنا من السماء؟ «واستطاع» تقابل «استجاب». إن الحق سبحانه وتعالى هو القادر على كل شىء وهو الذى يخضع لحكمه كل شىء، والحق لا يطلب إنما يأمر: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

---

(١) الخوان: ما يؤكل عليه وجمعه: أخونه، رخُون، وأخاوين المعجم الوسيط [١/ ٢٦٣].

فكأن الحق عندما يقول: ﴿كُن﴾ فهو قد طلب من الشيء طوعًا أن يكون. وعلى هذا فإن سؤالهم يكون كالآتى: هل يطلب ربك طوع الكون له؟! فيستجيب لنا بإرسال مائدة تكون عيدًا. ولنا أن نعلم أن قول اللَّه: ﴿كُن﴾ لا يمكن أن يصدر إلا والحق يعلم أن المطلوب منه يجب أن يطيع اللَّه سبحانه وتعالى، وأن يكون استعداده الانفعالى أن يطيع على الفور أمر الخالق؛ وحتى نعلم ذلك فلنقرأ قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢﴾ [الانشقاق] إنها لن تنتظر إلا سماع الأمر فقط، وحين تسمع الأمر فهى تنفعل، ومعنى تنفعل أى: تطيع، وكل الكون مطيع لخالقه سبحانه وتعالى. وقول الحق: ﴿قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾. لقد طلبوا مائدة من السماء وقدموا الرغبة فى الأكل والطعام على ضرورة التصديق الإيمانى الجازم، ولنا أن نرى اختلاف قولهم فى هذه المائدة عن قول عيسى ابن مريم عليه السلام لما سأل ربه هذه الآية، فيقول تعالى فى ذلك: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [المائدة: ١١٤].

إن قول عيسى عليه السلام هو قول ممتلئ بكل المعانى القَيِّمَة. إنه يطلب أن تكون المائدة عيداً يفرح به الأولون والآخرون، وآية من الحق سبحانه وتعالى. ويعترف بفضل ربوبية الرازق، ويعترف بامتنان أن الحق سبحانه خير الرازقين، والمقارنة بين قول الحواريين وقول عيسى عليه السلام تدلنا على الفارق بين إيمان المُبَلِّغ عن اللَّه وهو عيسى عليه السلام، وإيمان الذين تلقوا البلاغ عنه وهم الحواريون، إن إيمان عيسى عليه السلام هو الإيمان القوى الناضج، وإيمان الحواريين إيمان لا يرقى لإيمان عيسى عليه السلام، ولقد كانت قوة إيمان عيسى عليه السلام نابعة من أنه يتلقى عن اللَّه سبحانه وتعالى مباشرة. صحيح أن الحواريين آمنوا بالبلاغ عن اللَّه عز وجل، وتم ذلك بواسطة عبده ورسوله عيسى عليه السلام؛ ولذلك يعلو الرسول عن المؤمنين ببلاغه؛ ولذلك صحح عيسى عليه السلام طلبهم من اللَّه سبحانه وتعالى وهو يدعو ربه. إنه رسول مصطفى مجتبَى؛ لذلك يضع الأمور فى نصابها فيقول: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ﴾ وكلمة: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾. فى الأصل هى «يا اللَّه»، وعندما كثر النداء بها حذفنا منها حرف النداء وعوضنا عنه بميم فى آخرها فصارت «اللهم»، وكأن هذا اللفظ تتهيأ به نفس الإنسان لمناجاة اللَّه عز وجل فى تقديسٍ وثقة فى أن الحق يستجيب لعبده، وهو نداء يقوم على حب العبد لمولاه، فلا يوسط بينه وبين اسم ربه أى واسطة حتى وإن كانت هذه الواسطة حرفاً من حروف النداء ولنا أن نلحظ أن عيسى عليه السلام قدم كلامَ اللَّه بصفة

الألوهية؛ إنه كنبيّ مرسل يعلم تجليات صفة اللّه عز وجل، وهى تجليات عبادة من عابد إلى معبود، أما تجليات كلمة ربّ فهى تجليات مربوب وربّ، إنه يعلم الفارق بين عطاء الألوهية للخلق وعطاء الربوبية. إن عطاء الألوهية تكليف من معبود إلى عابد والعابد يطيع المعبود فيما يأمر به وفيما ينهى عنه. أما عطاء الربوبية فهو سبحانه المتولى للتربية؛ التربية للأجسام والعقول والمواهب والقلوب والأقوات. والرب هو ربُّ كل شىء، ربٌّ للمؤمن والكافر، والربّ يتولى تربية الكافر رغم إنكاره للألوهية، إنه يربّى الماديات التى تقيم حياته؛ ولذلك نجد الحق يقول عن هؤلاء الكافرين: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥].

إن الحق سبحانه يبلّغ نبيه محمدًا ﷺ أن يسأل الكافر عن خلق السماوات والأرض، ولن يجدوا إجابة على ذلك إلا قولهم: إن اللّه عز وجل هو الخالق. إن هذه هى إجابة الفطرة الأولى، ونحن نرى فى حياتنا أكثر من مثل على ذلك - ولله المثل الأعلى - عندما يسأل الأطفال عن شىء ومن الذى أحضره؟ فإننا نجد الإجابات تتسلسل إلى أن تصل إلى أن معطى كل شىء هو اللّه. فإن سأل طفلٌ أمه ماذا سنأكل؟ فستجيب الأم ـ على سبيل المثال ـ سنأكل بامية. . ، ويسأل الطفل: ومن أين؟ تجيب الأم: اشتراها والدك من بائع الخضر، ويسأل الطفل: من أين جاء بها بائع الخضر؟ تقول الأم: من تاجر الجملة فى السوق. يسأل الطفل من أين جاء بها تاجر الجملة؟ تجيب الأم: من الفلاح الذى حرث الأرض وَبَذَرَ فيها بذور البامية؟ يقول الطفل: من الذى خلق الأرض، وأنبت النبات؟ تقول الأم: إنه اللّه سبحانه وتعالى ربنا خالق كل شىء؛ لقد وصلت الأم بحوارها مع الطفل إلى عطاء الربوبية الذى يستوى فيه المؤمن والكافر. والمؤمن هو الذى يأخذ بجانب عطاء الربوبية عطاءَ الألوهية أيضاً، وهو التكليف. فعطاء الألوهية يعطى المؤمن عطاء الربوبية مضافاً إليه العطاء الذى لا ينفد. إنه يعطى المؤمن زمانًا لا يموت فيه ونعمة لا يتركها ولا تتركه. يأخذ به المؤمن يقين الإشراق، والإقبال على العمل فى ضوء منهج اللّه؛ ولذلك قال عيسى ابن مريم داعيا اللّه جلّت صفاته وأسماؤه: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

لقد ألزم عيسى عليه السلام نفسه بنداء الألوهية أولاً؛ معترفاً بالعبودية لله جلَّ وعلا ملتزمًا بالتكليف القادم منه، ثم جاء نداء الربوبية؛ فيا مَنْ أنزلت علينا التكليف، ويا مَنْ تتولى تربيتنا نحن ندعوك أن تنزل علينا مائدة من السماء. لقد ألزم عيسى عليه السلام نفسه بالعبودية، وأخذ نداءه من زاوية القيم ثم الزاوية

المادية وهى الرزق. لقد قدم الحواريون بشريتهم فطلبوا من المائدة الأكل والطعام، وقدَّم عيسى ابن مريم عليه السلام بصفائية اختياره رسولاً، القيم على الطعام. صحيح أن الرزق يمس الأكل ولكن الرزق ليس كلُّه أكلاً، هو كل شىء يُحتاج إليه وينتفع به: فالأكل رزق، والشرب رزق، والملبس رزق، والعلم رزق، والحلم رزق، والهداية رزق، وكل شىء يُنتفع به هو رزق من عند اللَّه. ولذلك جاء عيسى بالكلمة العامة التى يدخل فيها الأكل وتتسع لغيره.

ويجيب الحق دعاء عيسى ابن مريم: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥]. وحين يقول الحق: ﴿إِنِّى﴾ فهو يستخدم نون الإفراد. ونعلم أن هناك أسلوبين لحديث الحق سبحانه عن نفسه، فحين يتحدث سبحانه عن وحدانيته يأتى بنون الإفراد فيقول: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [طه: ١٤].

وحين يتحدث سبحانه وتعالى عن سياق القدرة الشاملة العامة لكل صفات القدرة الشاملة يأتى بنون التعظيم، فيقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وهو سبحانه وتعالى أراد هنا أن يعطينا معنى التوحيد فقال: ﴿إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾؛ ذلك أن المائدة ستنزل من السماء، ولا يقدر على ذلك إلا اللَّه سبحانه وتعالى.

ثم يقول الحق بعد ذلك: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥].

إن الحق سبحانه يرسل رسله بعد أن يجتبيهم، وإياك أيها العبد أن تقول: إن فلاناً من الرسل أفضل من فلان؛ لأن الحق هو الأعلم برسله، ولنا فى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥] الأمر باتباع الرسل. وعندما حاول بعض من أهل الجاهلية التعجب من شأن القرآن الذى نزل على محمد ﷺ، فردَّ اللَّه سبحانه وتعالى عليهم بقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف].

إن أهل الجاهلية قالوا: لماذا لم يُنزَّل القرآن على رجل عظيم من مكة أو

الطائف؟! لقد قالوا ذلك استهزاء بشأن محمد ﷺ، وقال الحق سبحانه وتعالى فى ذلك القولَ الفصلَ؛ فليس لأحد أن يختار الرسول؛ لأن الرسول مصطفى من اللّه، ولا يملك أحد من البشر أن يختار رسولاً من أصحاب السلطان أو الجاه، إنه سبحانه وتعالى يعدّ كل رسول الإعداد اللائق بمهمته، ومقام الرسالة والنبوة هو المقام الأعلى فى الدنيا والآخرة، والحق سبحانه هو المنظم لأمور خلقه، وقسم المواهب رحمة منه فيما بين العباد؛ ليتساندوا ويتآزروا ويحتاج كل منهم لعمل الآخر. والحق سبحانه وتعالى حين يرسل رسولاً فهو يختار الآية المناسبة له، وللعصر الذى جاء فيه، فإذا ما اقترح قوم آية فإن الحق يضع هذا الاقتراح شرطاً للتسليم برسالة الرسول. فإن لم يؤمن الذين اقترحوا الآية فإن الحق ينزل بهم العذاب الأليم. إن طلب الآيات من أتباع الرسول يحمل فى طياته بعض التفلُّت؛ كأن الذين يطلبونها يصرون على الكفر بالرسول رغم طلبهم للآية؛ ولذلك يقول الحق سبحانه: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

لقد اقترح الكفار والمشركون على رسول اللّه ﷺ أن يأتيهم بالآيات والمعجزات الدالة على صدقه؛ حتى يصدقوا أنه نبى مرسل من اللّه إليهم. وسنة اللّه سبحانه وتعالى مع الذين يطلبون الآيات ثم لا يؤمنون بها واضحة وهى العذاب الشديد؛ ومثال ذلك قوم ثمود الذين طلبوا ناقة تكون معجزة، وبرغم ذلك كفروا بها، فعاقبهم اللّه شر عقاب. إن بعضًا من الكافرين غالوا فى طلب آيات غريبة: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء].

إن محمدًا ﷺ كان رحيما بقومه، لذلك لم يطلب من الحق آيات غير التى أنزلها اللّه عليه. وعيسى عليه السلام دعا اللّه بأدب الرسل أن ينزل المائدة. واختلف العلماء أأنزل الحق سبحانه وتعالى المائدة أم لم ينزلها؟ فهناك من تمسكوا بقول الحق سبحانه: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا﴾.

وهناك من قالوا: إن الحق سبحانه وضع شرطا لنزول المائدة وهو إنزال العذاب إن لم يؤمنوا، فتراجعوا عن طلب إنزال المائدة، ولذلك لم ينزل الحق تلك المائدة. ومن قالوا بنزول المائدة اختلفوا فى مواصفاتها؛ فقيل: إن المائدة

نزلت وعليها سمكة مشوية من غير فلوس[١] ولا شوك فيها؛ ذلك أنها مائدة من السماء، ومعها خمسة أرغفة وعلى كل رغيف شيء مما يعرفون، رغيف عليه عسل، وآخر عليه زيتون، وثالث عليه سمن، ورابع عليه جبن، وخامس عليه قديد.

❁❁❁

فى ميلاد المسيح ورفعه آية

قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء: ١٥٧]. نلاحظ أن الآية: تبدأ بواو العطف على ما قبلها، وهو قول الحق: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النساء]. إن الحق سبحانه وتعالى يعطف على جرائمهم هذه الجريمة الجديدة: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ وأكثر ما يدهش فى هذا القول هو كلمة: ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾، فهل كلمة ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ هنا من قولهم؟.

إن كانوا قد قالوها، فهذا دليل اللجاجة المطلقة، فلو أنهم قالوا: إنهم قتلوه فقط، لكان الجرم أقل وطأة، ولكن إذا كانوا قد عرفوا أنه ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ ومع ذلك قتلوه فهذا جرم عظيم للغاية، أو أن كلمة ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ فى هذه الآية ليست من قولهم الحقيقى، إنما من قولهم التهكمى؟! وأضرب المثل؛ لأوضح هذا الأمر: قد يأتى شخص ذو قوة هائلة ومشهور بقوته، ثم يأتى شخص آخر يضربه ويهزمه، فيقول لأتباع ذلك القوى المهزوم: لقد ضربت الفتى القوى فيكم!

إذن.. قد يكون قولهم ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ هو من قبيل التهكم، أو أن تكون كلمة ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ هنا هى من قول الحق سبحانه وتعالى مضموماً إلى قولهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ فكأن الحق لم يشأ أن يذكر ﴿عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ إلا مرتبطاً أو موصوفاً بقوله: ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ ذلك؛ لنعلم بشاعة ما قالوه فيه وفى أمه عليهما السلام، فأراد الحق أن يبين أن عيسى ابن مريم رسول اللّه رغم أنوفهم، وكأن الحق يسخر منهم؛ لأنه ما كان اللّه ليرسل رسولاً ليبين منهجه للناس، ثم يسلط الناس على قتله قبل أن يؤدى مهمته، إنه سبحانه وتعالى قد جاء بكلمة ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾

---

(١) شيء مفلّس اللون إذا كان على جلده لُمَعٌ كالفلوس والمقصود أنها سمكة من غير قشر.

هنا كمقدمة يلفت بها الذهن إلى أن ما قالوه هو الكذب.

بعد ذلك يقول لنا سبحانه: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ ومجيء كلمة ﴿وَمَا صَلَبُوهُ﴾؛ لتوضيح أن مجرد ظنهم أنهم قتلوا المسيح جعلهم يشيعون ذلك ويعلنونه للناس. فعلوا ذلك قبل أن يتوجهوا إلى فكرة الصلب، إنهم قتلوا شخصاً شبَّهه اللَّه لهم، لم يكن هو المسيح. ثم صلبوه من بعد ذلك، ولكنهم بمجرد قتل هذا الشخص طاروا بخبر القتل قبل أن يقوموا بالصلب ويقطع اللَّه عليهم هذا الأمر فقال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ إن الحق القادر سبحانه وتعالى لفتنا من قبل إلى أن عملية ميلاد المسيح قوبلت من بنى إسرائيل بضجة رغم علمهم بالخبر. خبر مجيء المسيح بالميلاد من غير أب، ورغم أنهم علموا بناتهم الاستشراف إلى أن يكون لواحدة منهن شرف حمل المسيح رغم ذلك قالوا فى مريم البهتان العظيم.

إن ميلاد المسيح كان له ضجة، وكذلك كان لمسألة توفية الله تعالى له ضجة. واقتران الضّجّتين معاً فى رسالة المسيح يدلنا على أن العقل يجب أن يكون له وحدة تفسيرية ، فحين يسمع العقل عن قضية الميلاد بالنسبة لعيسى ابن مريم لابد أن يستشعر أنها جاءت على غير سنّة موجودة. وحين يبلّغنا الحق أن بنى إسرائيل بيتوا النية لقتل عيسى ابن مريم عليه السلام وأن اللَّه عز وجل رفعه إليه، هنا تكون المسألة قد جاءت أيضاً بقضية مخالفة، ولابد أن نصدق ما بلغنا اللَّه عز وجل به كما صدقنا أن عيسى ابن مريم جاء من غير أب، لابد أن نصدق أن الحق رفعه فى النهاية إليه.

إن الميلاد لم يكن فى حدود تصور العقل لولا بلاغ الحق سبحانه وتعالى لنا. وكذلك الرفع لابد أن يكون مقبولاً فى حدود بلاغ الحق لنا. إن الميلاد والنهاية بالنسبة لعيسى ابن مريم عليهما السلام كل منهما عجيبة، ولابد أن نفهم أن العجيبة الأولى فى الميلاد يجب أن تكون تمهيداً إلى أن عيسى ابن مريم عليهما السلام دخل الوجود ودخل الحياة بأمر عجيب، فلماذا لا يخرج منها بأمر عجيب؟

إن الحق سبحانه وتعالى حكم وقال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ وكلمة ﴿شُبِّهَ لَهُمْ﴾ هى دليل على الفوضى التى أوقعهم اللَّه - تَجَلَّتْ حكمته - فيها، فقد ألقى شَبَهَهُ على واحد آخر، وذلك دليل على أن المسألة كانت غير طبيعية؛ ليس فيها حزم التبين من المتربصين القتلة، ونحن نعلم أن الحواريين وأتباع عيسى عليه السلام كانوا يلفون رؤوسهم؛ ويدارون سماتهم؛ ولذلك قال الحق لنا: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أى أنه قد شبه لهم أنهم قتلوه.. كيف حدث هذا؟ وما الحكاية؟ إن كلمة

﴿شُبِّهَ لَهُمْ﴾ اختلفت فيها الروايات، فقيل: إنهم حينما طلبوا عيسى ابن مريم ليقتلوه دخل خوخة، والخوخة هى فتحة فى باب؛ ففى البيوت القديمة كان يوجد للبيت باب كبير لإدخال الأشياء الكبيرة، وفى هذا الباب الكبير يوجد باب صغير يسمح بمرور الأفراد، وفى سقف البيت توجد فتحة اسمها: روزنة فلما طلبوا عيسى دخل الخوخة، ولما دخل الخوخة دخل خلفه رجل اسمه تطيانوس، وعندما رأى عيسى عليه السلام هذا الأمر ألهمه اللّه سبحانه وتعالى أن ينظر إلى أعلى، فنظر، فوجد شيئًا يرفعه، فلما استبطأ القوم تطيانوس خرج عليهم فتساءلوا إن كان هذا تطيانوس فأين عيسى؟ وإذا كان هذا عيسى فأين تطيانوس؟ إذن.. فقد اختلط عليهم الشبه بين تطيانوس وعيسى، لما ألقى اللّه شبه عيسى على تطيانوس. إذن.. عيسى باقٍ، ولم يأت الحق بخبر موت عيسى عليه السلام، وعلى ذلك بقى الأمر على أصل ما وردت به الأحاديث من أن اللّه رفع عيسى ابن مريم وما دمنا مسلمين لا نستبعد أن يكون الحق سبحانه وتعالى قد رفعه إلى السماء، لماذا؟

لأن المبدأ مبدأ وجود بشر فى السماء قد ثبت لرسولنا ﷺ ولقد علمنا أن رسولنا محمداً ﷺ قد عُرِجَ به إلى السماء وأنه صعد وقابل الأنبياء ورأى الكثير من الرؤى. إذن.. فمبدأ صعود واحد من البشر من الأرض، لا يزال على قيد الحياة البشرية المادية إلى السماء هو أمر وارد، والخلاف يكون من المدة الزمنية. والمدة الزمنية لا تنقض مبدأ. سواء صعد وبقى فى السماء دقائق، أو ساعات، أو شهورًا.

إذن.. فقد ظن اليهود وقالوا: إنهم قتلوه وصلبوه.

وقد قال المسيح عليه السلام: أيكم يلقى شبهى عليه وله الجنة؟ فماذا إذن يريد الحوارى لنفسه أكثر من الجنة، لقد قدم عيسى عليه السلام الجائزة الكبرى لمن يدفع الثمن من أتباعه، وقبل واحد من الحواريين هذه المهمة ويقال له: سرجس فألقى شبه المسيح عيسى عليه فقتله اليهود. وقيل: إنه حينما عُرِف بعض من الذين ذهبوا لقتل عيسى أنه رفع، خافوا أن تنتشر هذه الحكاية بين الناس فيؤمنوا برسالة عيسى، وقد ينتقم الناس من الذين أرادوا قتله؛ لذلك جاء القتلة بواحد وقتلوه، وألقى على هذا القتيل شبه عيسى ابن مريم، أو أن القتيل هو واحد ممن باعوا عيسى لليهود، ولكن لما رأى المشهد ووجد المتربصين بعيسى يدخلون على الحواريين وفيهم عيسى؛ سأل المتربصون الحواريين: أيكم عيسى؟ فاستيقظت ملكة التوبة فى نفس الذى وشى بعيسى وقاده تأنيب الضمير على خيانة الرسول إلى أن قال: أنا عيسى. ولم يتصور المتربصون أن يجيب إنسان على قولهم: أيكم

عيسى، إلا وهو عيسى بالفعل؛ لأن مشهد المتربصين يوحى بأنهم سيقتلون عيسى. فقتلوا الذى اعترف على نفسه دون تثبُّت. إن هذا الذى باع عيسى باعه مقابل ثلاثين دينارًا، واختلط الأمر على القوم، فقتلوا الواشى ولم يظفروا بعيسى ابن مريم عليه السلام.

ونحن كمسلمين لا نهتم اهتماماً كبيراً بهذه الروايات، ولكن المهم أنهم قالوا: قتلنا عيسى وصلبناه فقال اللَّه تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾، كيف حدث ذلك؟ بأن رفعه اللَّه إليه وانتهت المسألة بالنسبة لنا؛ لأننا كمؤمنين لا نأخذ الجزئيات الدينية أولاً. نحن نؤمن أولاً بمُنزِّل هذه الجزئيات ونصدق من بعد ذلك كل ما جاء من الحق سبحانه وتعالى. والبحث فى هذه المسألة لا يعنينا فى شىء، ويكفينا أن الحق سبحانه وتعالى قال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾.

إن قول الحق عز وجل: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ يدلنا على عدم تثبت القتلة من شخصية القتيل، وهذا أمر متوقع فى مسألة مثل هذه؛ حيث يمكن أن تختلط الأمور. إننا فى حياتنا اليومية نرى أن حادثة يمكن أن تحدث فى وجود أعداد كبيرة من البشر وهم ينظرون إليها، ومع ذلك تقع الحادثة، وتختلف فيها الروايات، وقد تكون الحادثة مصورة ومسجلة، ورغم ذلك تختلف الروايات، فما بالنا بوجود حادثة مثل هذه، فى زمن قديم لا توجد كل الاحتياطات التى نراها فى زماننا؟! كان لابد أن تضطرب الآراء، والروايات فى تلك الحادثة، ولكن يكفينا أن الحق سبحانه وتعالى قال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾. إن الحق سبحانه وتعالى يخاطب العقل كثيراً لأنه ميزنا به، إن اللَّه سبحانه وتعالى خالق رحيم لا يورد نصاً إلا وهو يتوافق مع العقل السليم، وإن لم يتفق، فالأمر يرجع إلى قصور فى فهم العقل؛ ذلك لأن الأمر من اللَّه، ومادام الأمر من اللَّه فلا بد من التسليم المطلق. إن الأمر الذى قد تقف فيه العقول يتناوله الحق سبحانه وتعالى تناولا موسعا رحمة بالمكلفين.

وقول الحق: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٥].

إن علينا أن ننتبه إلى واو العطف بين متوفيك ورافعك، فمن قال: إن واو العطف تقتضى الترتيب، ومن قال: إن واو العطف تقتضى الجمع فقط، كقولنا: جاء زيد وعمرو، وهذا يعنى أن زيدًا جاء مع عمرو أو أن زيدًا جاء أولا أو أن عَمرًا جاء أولاً، وتبعه زيد. إن واو العطف لا تقتضى الترتيب وإنما مقتضاها هو الجمع فقط. لكن لو قلنا: جاء زيد فعمرو، فزيد هو الذى جاء أولا وتبعه عمرو؛

لأن الفاء تقتضى الترتيب والتعقيب. إن الواو تأتى لمطلق الجمع، ولا تتعلق بكيفية الجمع، وقد قال الحق سبحانه: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ هذا الضرب من الجمع لا يدل على أن الوفاة قد تمت قبل الرفع، ودليلنا على ذلك أن الحق سبحانه أنزل فى القرآن آيات تدل على هذا، كقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ﴾ [الأحزاب: ٧].

إن الحق قد أخذ الميثاق من محمد ﷺ، وجمع معه نوحاً وإبراهيم فهل هذا الجمع يقوم على الترتيب؟ لا عليهم السلام؛ لأن نوحًا كان متقدمًا جدا فى موكب الرسالات وسبق رسول اللَّه ﷺ بقرون طويلة ويفصل بينهما رسل كثيرون.

إذن.. فالواو لا تقتضى الترتيب فى الجمع. إذن.. لماذا جاء الحق بأمر الوفاة مع أمر الرفع؟ إن ذلك يُعلم منه أن الوفاة أمر مقطوع به؛ لكن الرفع مجرد عملية مرحلية فجاء قول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾.

والإنسان منا خلقه اللَّه سبحانه وتعالى مادةً وفى داخلها الروح، وعندما يريد الحق أن يُنهى حياة إنسان ما، فهو يقبضه بدون سبب فى البنية ويموت حتف أنفه، إما إذا ما ضرب إنسان إنسانا ضربة عنيفة على رأسه، فالمضروب أيضا يموت؛ لأن الروح لا تحل فى جسم به عطب شديد.

إذن.. فالحق سبحانه وتعالى قال لعيسى: أنا آخُذك إلىَّ ورافعك مستوفياً ليس بجسدك أى نقض لبنيتك أو هدم لها أو بعضها؛ إنى آخذك كاملا فقوله: ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ يعنى الأخذ كاملاً دون نقض فى البنيان؛ ولذلك فنحن نفرق بين القتل والموت. فالموت هو أن تقبض الروح حتف الأنف، أما القتل فهو هدم البنية فتزهق الروح، والدليل على ذلك أن الحق قال فى كتابه الكريم: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ..﴾ [آل عمران: ١٤٤].

إذن.. فحين قال بنو إسرائيل: إنهم قتلوا عيسى ابن مريم عليه السلام كذبهم الحق تبارك وتعالى وقال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ ورفعه اللَّه عز وجل إليه كاملاً. إنه سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾. إن الحق سبحانه وتعالى يقول لنا: إن القوم تيقنوا أنهم لم يقتلوه، لكنهم شكوا فى مسألة القتل. لم يعرف المتربصون لقتل عيسى هل قتلوا عيسى أم تطيانوس أم سرجس؟

نحن قد عرفنا من قبل معنى النسب فحينما ينسب الإنسان شيئاً إلى شىء فهو

يتبع إحدى النسب المعينة، فإن قال قائل: ذاكر محمد، فإن ذاكر حدث نسبه القائل إلى محمد. والنسبة تأتى على خمسة أوجه:

نسبة علم: وهى النسبة المتيقنة المقطوع بها، وتقدر على إقامة الدليل عليها.

ونسبة جهل: وهى أن يقول قائل بقضية: كأنها وقعت وهى لم تقع قط، والقائل يعلم أن قوله مخالف للواقع.

ونسبة شك: وهى التى يتساوى فيها الأمران؛ حدوث الحدث، أو عدم حدوثه، والشك نسبة متأرجحة.

ونسبة ظن: وهى التى يترجّح فيها أمر على أمر فالظن نسبة راجحة.

ونسبة وهم: وهى التى يقلّد فيها قائل ما سمعه ويردده، دون أن يستطيع إقامة الدليل عليه، كقول الطفل مُقَلّداً أباه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ إن الطفل لا يستطيع أن يدلل على أن اللّه أحد، ولكنه يقلد أباه أو أمه أو أستاذه، فإن تعلم الطفل من بعد ذلك أن يقيم عليها الدليل صارت نسبة علم.

إذن.. فالعلم يطلب واقعة يقوم عليها الدليل. أما الجهل فهو أن يعلم القائل أن ما يقوله مخالف للواقع. والفرق بين الجهل والأمية: أن الجاهل يقول ما يخالف الواقع وهو يعلم ذلك، أما الأمى فهو لا يعلم. إذن، فالجاهل يحتاج إلى نزع الباطل منه وإعطائه الحق المتيقن؛ ولذلك نجد أن الجهلاء هم الذين يرهقون أهل العلم؛ لأن الجاهل يعرف قضية مخالفة للواقع، فيحاول العلماء أن يصححوا له معلوماته.

والحق سبحانه وتعالى جاء بنسبتين متقابلتين، فبعد أن نفى سبحانه وتعالى نبأ مقتل عيسى ابن مريم عليه السلام قال: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ [النساء: ١٥٧]. والنسبة الأولى المذكورة هنا هى الشك، والشك كما قلنا: نسبة يتساوى فيها الأمران، والنسبة الثانية هى إتباعهم للظن، والظن نسبة راجحة لقد بدا الأمر بالنسبة إليهم شكّا، ثم انقلب ظناً. وقد تنتهى من بعد ذلك إلى علم يقين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ إن اللّه سبحانه وتعالى ينفى أنهم قتلوه يقيناً. واليقين هو الأمر الثابت الذى لا يتغير، فهو أمر معقود فى الواقع والأعماق بحيث لا يطفو إلى الذهن ليناقش من جديد. واليقين كما علمنا له مراحل:

مرحلة العلم: واسمها علم اليقين. ومرحلة العين: واسمها عين اليقين. ومرحلة الحقيقة: واسمها حق اليقين.

فعندما يخبرنا أحدٌ أن جزءًا من «نيويورك» اسمه مانهاتن وأن «مانهاتن» هذه هى جزيرة عدد سكانها عشرة ملايين نسمة، وفيها ناطحات سحاب، فهذا الخبر جاء من إنسان لانعرف عنه الكذب فيسمعه من لم ير «نيويورك» فيصبح هذا الخبر عنده علماً متيقناً. هذا علم يقين لأن الذى أخبر به موثوق به، وإذا جاء آخر ووجه للسامع من «نيويورك» دعوة لزيارتها، ولبى السامع الدعوة وذهب إلى « نيويورك» هنا نقول: انتقل الخبر من علم اليقين إلى عين اليقين، وإذا جاء ثالث وصحب السامع إلى قلب نيويورك وطاف به فى كل شوارعها ومبانيها، فهذا هو حق اليقين. وأسمى أنواع اليقين هو حق اليقين، وقبلها عين اليقين، وقبل عين اليقين هناك علم اليقين. والحق سبحانه وتعالى حينما عرض لهذه المسألة قال: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧﴾ [التكاثر] إن الحق سبحانه وتعالى يعطينا علم اليقين ويصدقه المؤمنون بهذا العلم قبل أن يروه؛ وسيرى المؤمنون النار وهم على الصراط؛ وذلك عين اليقين. أما مسألة دخول الذين يرون الجحيم إليها فأمر سكت عنه الحق؛ فهناك من يدخل الجنة ولا يدخل النار، وهناك من يدخل النار ولا يدخل الجنة وهناك من يدخل النار ثم يدخل الجنة، إن الكافرين بالله هم الذين سيرون الجحيم، حق اليقين. ويأتى حق اليقين فى موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝٩٣ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٤ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ۝٩٥﴾ [الواقعة]. إن كل مكذب ضال سينزل إلى الجحيم ويَصْلَى الجحيم ويعانى من عذابها حق اليقين.

إذن.. فقول الحق سبحانه وتعالى عن مسألة قتل عيسى ابن مريم عليه السلام قال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ هذا القول يصدقه الذين لم يشاهدوا الحادث تصديق علم يقين؛ لأن الله هو القائل، والذين رأوا الحادث عرفوا أنهم لم يقتلوه، ولكنهم شكّوا فى ذلك. أما الذى باشر عملية القتل لإنسان غير عيسى عليه السلام فهو الذى عرف حقيقة اليقين.

وخلاصة القول أن الذى حدث هو أنْ: ﴿رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾، لقد رفعه الله وهو الذى لا يغلبه أحد على الإطلاق، فهو القوى الشديد الذى لا ينال منه أحد، فإذا كانوا قد أرادوا قتل رسوله عيسى ابن مريم عليه السلام، فالله غالب على

أمره، وهو العزيز الحكيم؛ عزيزٌ فى حكمه، حكيمٌ فى تدبير مُلْكه.

❁❁❁

لم يصلب ولم يقتل بل نجاه اللَّه ورفعه إليه

وقول اللَّه تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

الذين ادعوا ألوهية عيسى أو أنه ابن الإله الخالق، كان الواجب عليهم أن يعترضوا على مسألة الصلب هذه، فكيف يقولون بألوهية أو ببنوّة ألوهية ثم يجىء أعداؤه فيقدرون عليه ويقتلونه ويصلبونه؟ إنه بذلك يكون قد انقلب من قادر إلى مقدور عليه، إنه بذلك يكون بشراً يَقدِر عليه غيره من البشر.

إذن.. فعندما يأتى الإسلام ويبرئ عيسى عليه السلام من هذه المسألة. فهو يعين أتباع عيسى على تبرئته من القتل والصلب، وكان يجب أن يتلقف أتباع عيسى عليه السلام قول اللَّه عز وجل فى هذه القضية: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ ليؤمنوا به ويعملوا به.

ويقول ربنا وهو أصدق القائلين: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾، فالنصارى زاعمو التبعية لعيسى عليه السلام يقولون بالرفع، ولكن بعد الصلب، ونحن - المسلمين - نقول بالرفع ولا صلب؛ ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾.

والذين يقفون عند هذه المسألة يجب عليهم ألا يقفوا؛ لأن قصة عيسى عليه السلام بدأها اللَّه بمعجزة، وهى أنه ولد من أم دون أب، فإن كنتم قد صدقتم بالمعجزة فى الميلاد، فلماذا لا تصدقون بها فى مسألة الرفع؟!

وإذا كان فينا نحن - المسلمين - من يقول: إن عيسى عليه السلام مات ولن ينزل. نقول لهؤلاء: ماذا تقولون فى نبيكم محمد ﷺ؟ أعُرج به إلى السماء؟ سيقول المسلمون: نعم. ونقول لهم: ألم يكن رسول اللَّه ﷺ حيًا بقانون الأحياء؟ سيقولون: نعم كان حيا بقانون الأحياء. ونقول: وظل رسول اللَّه ﷺ مدة وجيزة فى السماء ثم نزل إلينا. إذن.. فالمسألة فى أن يذهب خلق من خلق اللَّه بإرادة الحق وقدرته إلى السماء وهو حىّ وما يزال حيًا ثم ينزل إلى الأرض.. هذه المسألة ليست عجيبة، والخلاف بين رفْع عيسى عليه السلام وصعود محمد ﷺ بالمعراج، هو خلاف فى المدة، ولنا أن نعرف أن الخلاف فى المدة لا يقتضى خلافًا؛ المهم أنه صعد بحياته ونزل بحياته وظل فترة من الزمن بحياته.

إذن.. مسألة الصعود إلى السماء والبقاء فيها لمدةٍ أمر وارد فى شريعتنا الإسلامية.

ويقول الحق فى هذه المسألة تأكيداً لهذه القضية: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩].

قد يقول السامع لهذه الآية: إنهم أهل كتاب ولابد أن يكونوا قد آمنوا به. ونقول: لا.. لقد آمنوا به إيماناً مرادًا لأنفسهم وليس الإيمان المراد للّه، لقد آمنوا به إلهاً أو جزءًا من إله أو ابن إله، ولكن اللّه يريد أن يؤمنوا به على أنه بشر وأنه رسول وأنه عبد، فإذا قال الحق: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾.

إن هذا القول معناه: ما من أحد من أهل الكتاب إلا ويؤمن بعيسى عليه السلام رسولاً وعبداً وبشراً قبل أن يموت.

وقلنا فى اختلاف الضمائر: إن الهاء الموجودة فى قوله: ﴿إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾ يرجع هذا الضمير إلى عيسى.. فسوف يؤمن به كل واحد من أهل الكتاب بمراد اللّه كعبدٍ بشرٍ ورسولٍ، والضمير الآخر الموجود ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾؛ يرجع إما إلى عيسى أى قبل موت عيسى، أى إن عيسى لم يمتْ الميتة الحقيقية التى تنهى أجله فى الحياة إلا بعد أن يؤمنوا به عبداً ورسولاً وبشراً، ولا يؤمنون به إلا إذا جاء بلحمه ودمه، ويقول لهم: أنتم مخطئون فيما اعتقدتم، وأنتم مخطئون فى أنكم أنكرتم بشارتى بمحمدٍ النبى الخاتم ﷺ. وأنتم مخطئون فى اتهامكم لأمى، والدليل على خطئكم هو أننى جئت لأدعوكم للإيمان بالرسول الخاتم محمد ﷺ، وهأنذا أصلّى خلف واحد من أمة ذلك الرسول.

وذلك يدل على أن عيسى عليه السلام لن يأتى بتشريع جديد؛ بل إنه ساعة نزوله، سيجد الصلاة قائمة فيصلى خلف واحد من المؤمنين بمحمد بن عبد اللّه ﷺ. حين يصنع عيسى ابن مريم ذلك ماذا سيقول إذن الذين فتنوا فيه؟ لا شك أنهم سيعلنون الإيمان برسالة محمد ﷺ، أو أن كل كتابىٍّ من الذين عاشوا فى المسافة الزمنية من بعد رفعه وحتى نزوله مرة أخرى سيعلن الإيمان بعيسى كبشرٍ ورسولٍ وعبدٍ، قبل أن يموت ولو فى غيبوبة النهاية. إن الآية يصح أن تكون عامة؛ فالحق قال فيها: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾.

إن الضمير فى الآية قد يعود إلى كل كتابىٍّ قبل أن يموت؛ لأن النفس البشرية لها هوى قد يستر عنها الحقائق ويحجب اليقين، وغرور الحياة يدفع إلى ذلك؛ فإذا ما جاءت سكرة الموت بالحق انتهى كل شىء يبعد الإنسان عن منهج

الحق واليقين.. ولا تبقى إلا القضايا بحقها وصدقها ويقينها، وتستيقظ النفس البشرية على لحظة تظن أنها ستلقى اللَّه فيها، ويسقط غرور الحياة ويراجع الإنسان نفسه فى هذه اللحظة. ويقول الكتابىّ فى تلك اللحظة لنفسه: أنا اتبعت هوى نفسى فى أننى جعلت عيسى إلهاً، ولكن هل ينفع مثل هذا اللون من الإيمان صاحبه؟! لا، لا ينفع إيمان الإنسان حال موته، فإنه فى تلك الساعة عاين كل شىء وكشف عنه الحجاب وعرف مقعده فى الجنة أو فى النار، وحينئذ لا ينفع نفس إيمانها لم تكن آمنت من قبل ولا كسبت فى إيمانها خيرًا.

إن إيمان فرعون لحظة الغرق لم ينفعه وكذلك إيمان أىٍّ من أهل الكتاب قبل الموت. لقد قال عز وجل: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

إن قول اللَّه: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ لا أحد من أهل الكتاب إلا وهو سيؤمن بعيسى قبل أن يموت عيسى أو قبل أن يموت الكتابىّ. وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾.

إن عيسى عليه السلام سيشهد على من عاصر نزوله فى الدنيا، وسيرونه يصلى خلف واحد من أمة محمد ﷺ، وبعد ذلك يكسر الصليب ويقتل الخنزير كما يشهد يوم القيامة على السابقين من أهل الكتاب الذين قالوا إنه إله أو ابن إله، يحدث ذلك فى موقف مهيب يوم يجمع اللَّه الناس للحساب ويستدعى عيسى عليه السلام للشهادة على قومه فيسأله: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].

سؤال واضح صريح محدد وعلى رؤوس كل الخلائق وفى حضور أنبياء اللَّه وملائكته.. فماذا يكون جواب نبى اللَّه عيسى عليه السلام: ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦].

هكذا ستكون شهادة عيسى ابن مريم على من اتخذوه وأمه إلهين مع اللَّه.

❁❁❁

وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ

يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ [مريم].

الذين قالوا هذا الكلام قالوه بعد ثلاثمائة سنة من ميلاد المسيح عليه السلام؛ لأنه قبل ذلك لم يقل أحد هذا الكلام، فما الذى زاد فى ملك اللَّه بعد أن جاء الولد؟! الشمس هى الشمس، والنجوم هى النجوم، والأرض هى الأرض، والهواء هو الهواء. فالذى نظم هذا الكون منذ بدء الخليقة لا يحتاج إلى ولد يساعده فى هذا الأمر. إذن.. فموضوعية اتخاذ الولد عبث؛ لأنه لم يزد شيء فى الملك على يد هذا الولد، فلم تكن هناك صفة معطلة عند الحق سبحانه وتعالى.. ولما جاء الولد كمل الكون بهذه الصفة؟!! تعالى اللَّه عن ذلك؛ لأن الصفات الكمالية للَّه قبل أن يخلق أى شيء؛ فهو خالق قبل أن يخلق ورازق قبل أن يرزق، ومُحْيٍ قبل أن يحيى، ومميت قبل أن يُوجَد مَن يموت فكل صفات الكمال موجودة قبل متعلقاتها؛ فصفات اللَّه أزلية.

قال تعالى فى سورة الكهف ردًّا على افترائهم: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

وهنا قال: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾ [مريم].

الإدّ: هو المتناهى فى النُّكر والفظاعة، من أَدَّه الأمر إذا أثقله ولم يقوَ عليه؛ ولذلك يقول سبحانه فى آية الكرسى: ﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾.

أى لا يثقله حفظهما. فكأنهم جاءوا بكذبة لا تتحملها الجبال. واتخاذ الولد له مقاصد: منها أن يكون لك عزوة وتزداد به قوة، وربنا سبحانه لا يحتاج لشيءٍ من ذلك فهو العزيز القوى عن كل شيءٍ. كذلك أنت تتخذ الولد؛ ليكون لك ذكر بعد موتك، وربنا لا يحتاج هذا لأنه حى لا يموت وبقاؤه لا يتناهى، كذلك أنت تتخذ الولد ليرث تركتك بعد مماتك، واللَّه لا يحتاج هذا، فهو سبحانه يرث الأرض ومن عليها. إذن.. اتخاذ الولد ليس له علّة عند الحق سبحانه، كما أن اتخاذ الولد ينفى سواسية العبودية للَّه؛ لأن اللَّه يريد أن يكون خلقه سواسية، فإذا صار له ولد تنتفى السواسية.

ومعنى قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ أى: فظيعاً ومنكراً ومستبشعاً، ومادام شيئاً منكراً فلا ينكره المكلفون من الإنس والجن فقط، ولكن تنكره الأشياء

التى لم تكلف من الجبال والسماوات وغيرها، ولذلك يقولون هذا أمر تهتز له السموات السبع.

ومعنى قوله: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾. أى: تتشقق وتنفطر ولكنها لم تنفطر؛ لأن اللَّه تعالى يمسك السماوات والأرض أن تزولا، فالحيثية فى انفطار السماء وانشقاق الأرض وخر الجبال: أنهم دعوا للرحمن ولدا، وردّ الحق سبحانه وتعالى على هذا الزعم بقوله: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾.

هناك شىء اسمه نفى الحدث وشىء اسمه نفى ابتغاء الحدث، فمعنى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ أى: أنه سبحانه لو أراد اتخاذ الولد فلن يمنعه أحد، ولكنه لم يفعل ولم يُرِد، وأنكر ذلك على من زعموه كذباً وزوراً فنفى الابتغاء يدل على أن الحدث إن أراده اللَّه كان، ولكن لا ينبغى له أن يتخذ ولداً، لماذا؟ لأن الولد حتى ولو كان ولداً بارًا وطائعاً، فاللَّه تعالى غير محتاج له؛ لأن الكل عبيده ولا يستطيع أحد أن يتمرد عليه؛ لأنه قادر عليهم جميعاً، فهم فى قبضته ورهن مشيئته.

ثم قال تعالى تأكيدًا لذلك: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

فكل المخلوقات عابدة للَّه، وحتى الذين كفروا لم يخرجوا عن أنهم عبيد للَّه؛ لأن الإنسان فيه منطقة اختيار، هذه المنطقة هى أن يفعل أو لا يفعل، ولكن أيضاً هناك منطقة قسر، فالكافر بما أعطاه اللَّه من صفة الاختيار أن يكون طائعاً أو عاصياً، مؤمناً أو كافراً، هذا الكافر اعتاد أن يخالف أوامر اللَّه فى الأمور التى وضع له فيها اختيارًا، فهذا الكافر الذى اعتاد على المخالفة والتمرد على الإيمان، لماذا لا يتمرد على المرض فلا يمرض؟ ولماذا لا يتمرد على الموت فلا يموت؟! وإذا افتقر لماذا لا يتمردّ على الفقر ويرفضه؟!

إذن.. أنت لك حرية الاختيار فى أشياء؛ ومجبر على أشياء أخرى، وهذا فى الدنيا فقط، أما فى الآخرة فإن هذا الاختيار يسلب منك، فالمؤمنون حقًّا هم الذين آثروا طاعة اللَّه، واختاروا رضاه واتباع نبيه ﷺ؛ ولذلك فكل تصرفاتهم موافقة لما يريده اللَّه؛ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم]. قلنا: إن الإحصاء هو العدّ، وكلمة الإحصاء مأخوذة من العدّ

بالحصى الذى كان متبعاً قديماً؛ فربنا أحصى الناس وعدّهم عدًّا وكل إنسان يأتيه يوم القيامة بمفرده؛ لا حاشية ولا حراس ولا عزوة ولا أولاد ولا جاه ولا سلطان ولا أى شىء!!

ويقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء]. هذا تنزيه للّه عن أن يكون له ولد، فالحق سبحانه يقول: ليس للّه ولدٌ بل عباد مكرمون، ومع أنهم مكرمون إلا أنهم لا يسبقونه بالقول ويطيعون أمر ربهم؛ فلا يعملون شيئاً لم يأمرهم به، فهم طوع أمره.

إذن.. آفة المجتمعات أن عظماءها يسبقون بالقول، ويعملون بأوامرهم لا بأمر اللّه!! وهم على خطر عظيم.

لقد خلق اللّه الليل مكملاً للنهار، والذكر مكملاً للأنثى، فإذا كان اللّه قد خلق التكامل فى المخلوقات فكيف يحاول بعض الناس أن ينفوا الكمال عن اللّه سبحانه وتعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ [يونس: ٦٨].

الادعاء بأن للّه سبحانه وتعالى ولدًا نقصان فى كمال اللّه جل جلاله؛ ذلك أن الإنسان يتخذ الولد لعدة أشياء: إما ليكمل نقص الوجود؛ لأن عمره فى الدنيا محدود، ولذلك يريد أن تبقى ذكراه فى الدنيا، واللّه سبحانه وتعالى له كمال الوجود؛ فهو الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية، فَلِمَ يتخذ ولدًا، وهو أصل الوجود، وله كمال الوجود سبحانه وتعالى؟! وإما أن يتخذ الإنسان ولداً؛ ليرثه فهو لا يريد أن يذهب ماله للآخرين، إنما يريد امتداد ما يملك إلى ابنه.

واللّه سبحانه وتعالى هو مالك الملك دائماً وأبداً، وهو جل جلاله الذى يرث الأرض ومن عليها ومن فيها، له الملك وحده، وعندما يصعق من فى السموات ومن فى الأرض يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

لذلك فهو تبارك وتعالى ليس محتاجاً لأنْ يمتد ملكه؛ لأنه هو المالك الحقيقى لمن فى الأرض ومن عليها، ولكننا نملك مجازاً ولفترة محدودة، ولكن الحق سبحانه هو وحده الذى يملك حقيقة، واقرأ قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

إذن.. فالملك للّه وحده لا يزول عنه أبداً، وهو ليس محتاجاً إلى ولد ليرث ملكه، أو لأى غرض آخر.

والإنسان يحتاج إلى ولد ليعطيه العزة والقوة، وهو فى شبابه قوى بذاته، وفى شيخوخته ضعيف بذاته قوى بأولاده، ولذلك فهو يريد الولد؛ ليكون له قوة عندما يضعف. واللّه سبحانه وتعالى هو القوى دائما الذى لا يضعف أبداً، وهو جل جلاله دائمُ القوة، ولذلك فهو لا يحتاج إلى ولد.

إذن.. فكل الأسباب التى تجعل الإنسان يريد ولداً هى لاستكمال نقص: نقص فى العمر؛ لأن الإنسان عمره محدود، ونقص فى الملك؛ لأن الإنسان يترك ما يملك عندما يموت، ونقص فى القوة؛ لأن الإنسان عندما يبلغ الكبر يضعف ويصبح محتاجاً إلى من يعينه ويدافع عنه. واللّه سبحانه وتعالى له الكمال كله منزه عن هذا النقص.

ثم كيف يتخذ اللّه ولدًا؟ إذا كان قد خلقه فهو من خلق اللّه، وإذا كان لم يخلقه ولكن الابن خلق نفسه فإنه لا يصبح ابناً ولكنه يصبح إلهاً؛ لأنه خلق نفسه وأوجد نفسه، ومن هنا يصبح هناك إلهان وليس إله واحد، وأما أن يأتى الولد عن طريق أنثى، فاللّه سبحانه وتعالى منزه عن ذلك؛ لأنه خلق آدم بدون ذكر أو أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى. إذن فهو ليس محتاجاً إلى أنثى ليخلق ولدًا؛ لأن طلاقة قدرته جل جلاله أوجدت آدم بدون ذكر أو أنثى، وأوجدت حواء بدون أنثى. والأسباب مخلوقة للّه سبحانه وتعالى، ولذلك فإن طلاقة قدرة الخالق هى التى تحكمها، فكيف نأتي ونجعل الأسباب تحكم خالقها؟! وكيف نأتى إلى طلاقة قدرة اللّه سبحانه وتعالى فى أنه يفعل ما يشاء، وأنه يقول للشىء كن فيكون، ثم نقيد طلاقة القُدرة بأنه يجب أن تكون هناك أنثى ليأتى الولد، فكأننا ننقص من طلاقة قدرة اللّه سبحانه وتعالى فى كونه.

ثم من أين جاءت هذه الأنثى؟ إذا كان اللّه سبحانه وتعالى قد خلقها فهى من خلق اللّه وعباده، وإذا كانت قد خلقت نفسها فكأنها إله، وبذلك يكون عندنا ثلاثة آلهة بدلاً من إله واحد؛ وهنا يفسد الكون؛ لأن كل إله له أمر، وكل إله له خلق، وكل إله يريد أن يعلو على الآخر فتكون النتيجة كارثة.

وإذا نظرنا إلى الآية الكريمة: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [يونس: ٦٨]. فإن القرآن نفسه يكذبهم؛ لأننا عندما نقول اتخذ فلانٌ بيتاً فلابد أن فلاناً كانت له ذاتية قبل أن يوجد البيت، فقولهم: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾. فقبل أن يتخذ اللّه الولد أكانت

له ذاتية مكتملة أم لا؟ كانت له سبحانه وتعالى ذاتية مكتملة، وحتى هذا الولد اختلفوا فيه، فقال الكفار: الملائكة بنات اللَّه. فردَّ الحق سبحانه وتعالى بقوله: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾. أى: عندما يريد الحق سبحانه وتعالى أن يتخذ ولداً أيتخذ الجنس الأقوى أم الجنس الأضعف؟!

ومرّةً قالوا: إن اللَّه قد اتخذ ولداً من الأنبياء، واقرأ قول الحق سبحانه: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠].

والآية الكريمة: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ ترد عليهم؛ لأنهم عندما قالوا ذلك فمعناه أن الولد قد جاء بعد أن وجدت ألوهية مستقلة للَّه سبحانه وتعالى، وبهذه الألوهية أخذ الولد، وأول أسباب الاتخاذ: الحاجة، فعندما تقول: فلانٌ اتخذ بيتاً؛ فإنه محتاج إلى بيت، ومعنى اتخاذ الإنسان لشىء: أنه محتاج له ليكمل نقصاً فيه فما هى حاجة اللَّه سبحانه وتعالى إلى الولد؟! وله الكمال المطلق فى الكون كله.

ولذلك يأتى قول الحق جل جلاله: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾. أى أن اللَّه سبحانه وتعالى مستغنٍ عن الكون كله، فكيف يحتاج إلى ولد؟! ولقد تحدثنا عن أسباب الاحتياج إلى الولد، واللَّه تعالى منزه عنها كلها، وهم يقولون من لا ولد له؛ لا ذِكْر له؛ لأن الإنسان سيموت لا محالة ويريد أن تستمر حياته فى ولده، واللَّه سبحانه وتعالى حىٌّ لا يموت، قوى قادر لا يضعف، غنى له ملك السموات والأرض. إذن.. فكل أسباب احتياج الولد اللَّه منزه عنها، ولذلك يقول تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾؛ سبحانه: تقطع كل شك أى أنه منزه عن هذا كله، وهى تنزيه للحق سبحانه وتعالى عن مشاركة أى شىءٍ له، لا فى الذات ولا فى الصفات ولا فى الأفعال. ولذلك إذا ورد شىء هو للَّه وصف، ولخلقه وصف، إياك أن تأخذ هذه الصفة كتلك. فاللَّه غنى، وفلان غنى، فهل غنى اللَّه كغنى خلقه؟! اللَّه سبحانه وتعالى غنى بذاته والخلق أغنياء غنًى زائلاً، إما أن يزول عنهم فى حياتهم، وإما أن يزولوا هم عنه بالموت. فغنى اللَّه سبحانه وتعالى باقٍ، وهو جل جلاله غنى بذاته، غنى دائماً عن كل خلقه؛ إذن.. لا تشبيه. اللَّه سبحانه وتعالى حىّ وأنت الآن حىّ، ولكن حياتك سبقها عدم، وحياة اللَّه تبارك وتعالى لم يسبقها عدم؛ لأنه دائم الوجود، وحياتك يلحقها عدم، وحياته جل جلاله لا يلحقها عدم.

إذن.. فعندما يأتى وصف للَّه ووصف لخلق اللَّه، فلابد أن تقول: سبحان اللَّه؛ لأن اللَّه تعالى ليس كمثله شىء، ولا تدخل فى التفاصيل؛ لأنك وأنت

المخلوق لا يمكن أن تحيط بخالقك، ولكن كل ما خطر بعقلك فالله بخلاف ذلك. ونضرب لذلك مثلاً ولله المثل الأعلى، عندما تأتى لطفل فى الحضانة وتعطيه تمريناً هندسيًا مقرراً على السنة النهائية بكلية الهندسة أيقدر عليه؟ طبعاً مستحيل، فإذا كان هذا فى عرف البشر فى عالمهم، فكيف بالنسبة لله جل جلاله؟!. إذن.. كل شىء يخطر ببالك فنزّه الله عنه.

والتنزيه صفة ذاتية فى الله سبحانه وتعالى؛ ولذلك فهو جل جلاله منزه قبل أن يخلق من ينزهه ومنزه بعد أن خلق من ينزهه؛ منزه منذ الأزل وإلى الأبد؛ ولذلك نجد هذا التنزيه فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]. وقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧]. وقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣]. وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٩].

والله سبحانه وتعالى قبل أن يُشهد أحدًا على ألوهيته أشهد نفسه، وهذه شهادة الذات للذات ولذلك قال جل جلاله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى قبل أن يطلب منا أن نشهد أنه إله واحد أحد شهد هو سبحانه وتعالى، ثم شهدت الملائكة وشهد النبيّون. وكما قلنا: الله مُسبَّح قبل أن يوجد مسبِّح، ثم خلق الله المسبِّح فسبح بمجرد الوجود، وجاء بعده خلق فسبحوا، فالوجود كله مسبِّح لله، ولذلك يقول الحق جل جلاله فى سورة الحديد: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحديد: ١].

ولكن هل سبَّح وانتهى؟ هل قالها مرة وسكت؟ نقول: لا، ولذلك يأتى فى سورة الجمعة قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الجمعة: ١].

وقال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١]. وقال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ﴾.

وهكذا حتى لا يظن أحد أن الكون سبّح لله مرة واحدة وسكت. نقول: إن الكون سبح لله ومازال مسبحاً وسيظل مسبحا. والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

وهكذا يعطينا الحق جل جلاله الرد الحاسم: لماذا يكون سبحانه له ولد؟ وله ما فى السموات وما فى الأرض، فما حاجته إلى الولد وكل ما فى الكون ملكه؟! ثم يقول تبارك وتعالى: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ﴾ [يونس: ٦٨].

يعنى هل عندكم دليل على ما تقولون؟ ﴿إِنْ﴾ تأتى للنفى، وسلطان يعنى: حجة. فما هى حجتكم على أن للّه سبحانه وتعالى ولداً؟.

ثم يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وهل يعلم أحد عن اللّه جل جلاله إلا ما أخبرنا به اللّه؟! علمنا عن اللّه لابد أن يأتى من اللّه، ومادام اللّه لم يخبركم بذلك، فمن أين جاءكم هذا الكلام؟!

ثم يقول الحق لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [يونس: ٦٩]. وما داموا يقولون على اللّه مالا يعلمون فهم يكذبون؛ لأن العلم هو إدراك قضيّة مجزوم بها وواقعة وعليها دليل، فإذا اختل واحد من هذه الأركان فهذا ليس علماً، ولكنه إما أن يكون جهلاً أو افتراءً أو كذباً، والحق تبارك وتعالى حينما يتكلم عن المؤمنين يصفهم دائماً بالفلاح؛ واقرأ قوله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ [المؤمنون].

ومادة الفَلاح مع أنها تستخدم فى الأمور المعنوية، لكنها مأخوذة من الأمور المادية المتصلة بحياة الإنسان؛ لأن الإنسان محتاج لكى تستمر حياته إلى الهواء والماء والطعام؛ والهواء متوافر للجميع، والماء ينزل من السماء، والطعام أصله من الأرض، والفلاحة هى أحد الأسباب الثلاثة لاستبقاء الحياة؛ لأنك حين تفلح الأرض تشقها وتضع فيها البذور وترويها بالماء فتخرج لك الثمرة. ويقال: أفلح يعنى: أنتجت زراعته. إن الحق تبارك وتعالى أتى بالحصيلة الإيمانية وسمّاها: فَلاحاً، ولذلك قالوا: الدنيا مزرعة الآخرة، فإذا كنت تريد الثمرة فلابد أن تعمل العمل الذى يعطيك فى الآخرة واللّه حين يطلب منك ذلك لا ينقص مما عندك؛ بل يزيده تماماً، مثل الفلاح حين يحصد القمح، ثم يأخذ عدة أرادب إلى المخزن؛ لتكون تقاوى للعام التالى، فإذا فرضنا أن امرأته حمقاء وأخذت هذه الأرادب وأطعمتها لأولادها، تكون بذلك قد منعت محصولاً وفيراً سيأتى فى العام التالى، ولذلك حينما يأخذ الفلّاح عدة أرادب من المحصول كتقاوى للعام التالى، فإنه لا ينقص المحصول بل يزيده؛ لأن هذه الأرادب ستأتيه بأضعاف أضعافها عندما تزرع فى العام التالى وهكذا الدين لا يأخذ منك إلا ليعطيك أضعاف أضعافه، وكما أن الأرض تعطيك على قدر حظك من العمل والتعب، كذلك أمر الآخرة جزاؤك فيها

على قدر تعبك وعملك فى الدنيا؛ فإذا حرثت الأرض جيدًا، ووضعت فيها البذرة والسماد، وحرصت على أن ترويها فى مواعيدها، على قدر عملك وتعبك يأتي المحصول الوفير. وإذا جلست على المقهى مرتاحاً لا تفعل شيئاً؛ فلا تأخذ شيئاً.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [يونس: ٦٩].

والافتراء: هو الكذب المتعمد؛ بأن تعرف الحقيقة وتقول كذباً، وهؤلاء يعلمون أن كل ما يتعلق باللّه لا نعلمه إلا بإخبار اللّه لنا به، ومع علمهم بهذه الحقيقة فإنهم يكذبون. فالذى يريد أن يحقق لنفسه نفعاً بأن يصبح له مستقبل مرموق فى المجتمع وأخذ بالأسباب فى ذلك، والذى لا يصحو من النوم ولا يذهب إلى المدرسة يريد أن يحقق لنفسه نفعاً أيضاً؛ بألّا يتعب نفسه فى شىء. إذن.. فكلاهما يريد نفعاً والذى تعب واستيقظ مبكراً لم ينظر إلى النفع السريع، ولكنه نظر إلى النفع المستقبلى بعد خمس أو ست سنوات يصبح إنساناً له كيان فى المجتمع، والذى نام كما يشتهى فلم يستيقظ مبكراً، وأمضى يومه يتسكع؛ نظر إلى النفع العاجل فلم يتعب، ولكنه أصبح صعلوكاً فى المجتمع.

إذن.. فقيمة العمل ليست على قدر النفع العاجل؛ ولكن على قدر امتداد النفع وضخامته؛ فالجبان الذى يهرب من المعركة حقق نفعاً بأنْ هرب من الموت، والشجاع الذى ألقى بنفسه فى المعركة حقق نفعاً باستشهاده، ولكن الأول نظر إلى نفعٍ وقتىٍّ فى الدنيا، والثانى نظر إلى نفع أبدىّ فى الآخرة.

نعود إلى السؤال: ما الذى يجعلهم يفترون على اللّه الكذب؟ إنها عملية تسمى: انهيار الذات. ما معنى انهيار الذات؟ لنضرب لذلك مثلاً يقرب ذلك إلى الأذهان: هب أن حلاقاً فى القرية يقوم بعلاج الناس، ثم جاء أحد أبناء القرية وقد درس فى كلية الطب وفتح عيادة، حينئذٍ ماذا يصيب حلاق القرية؟ يصيبه شىء اسمه انهيار الذات، أى أنه تضاءل وانهار أمام ما لا يقدر على دفعه، فماذا يفعل؟ إن كان عاقلاً يحاول أن يبحث عن مهنة أخرى، وإن كان غير متزن العقل فسيحاول أن يحارب هذا الطبيب بالأكاذيب؛ كى يستعيد نفوذه الذى انهار، وهكذا عصابة الكفر والضلال فهى مستفيدة من المجتمع الذى تعيش فيه، يأخذون الأموال والقرابين ويعطون للناس الجهل، تماماً كحلاق القرية، وهم بذلك مستفيدون ولهم ذاتية وسيادة. ولكن عندما يأتى رسول فإنه سيأخذ السيادة منهم، ليس لنفسه، ولكن لدين اللّه الحق هذه السيادة كانت مكانتهم ووجاهتهم وثروتهم واستغلالهم

للناس؛ حينئذ يصابون بانهيار النفس، ويطلقون الأكاذيب على منهج اللَّه، ويقولون على اللَّه سبحانه وتعالى ما لا يعلمون؛ ليحتفظوا بنفوذهم ويحاربوا ذلك الذى جاء بالدين الجديد؛ ليسلبهم سلطتهم. فمثلاً عندما هاجر رسول اللَّه ﷺ إلى المدينة، وفى اليوم الذى وصل فيه رسول اللَّه ﷺ كانوا سيضعون التاج فوق رأس عبداللَّه ابن أبَى؛ ليصبح ملكاً على المدينة، وعندما وصل رسول اللَّه ﷺ بطل هذا كله فانهار عبد اللَّه بن أبى وبدأ بالعداء. ثم آمن نفاقاً وظل كافراً، وكان يحارب الإسلام ويطلق الإشاعات ضد رسول اللَّه ﷺ والمؤمنين.

والحق سبحانه وتعالى يبين لنا لماذا اختاروا الكذب فيقول: ﴿مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا﴾.

إذن.. فالذى حملهم على هذا الافتراء، أنهم يريدون أن يحتفظوا بسلطتهم وبسيادتهم فى الحياة الدنيا، ولذلك لم يقل الحق تبارك وتعالى متاع فقط، بل: ﴿مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ [يونس: ٧٠] وحدها، وما دام المتاع فى الدنيا محدود القدرات، فهم قد اختاروا عدم الفلاح؛ لأنهم اشتروا الدنيا بمتاعها المحدود القليل، وباعوا الآخرة بمتاعها الأبدى، الذى فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

والحق تبارك وتعالى قال: ﴿مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ فما معنى كلمة فى الدنيا؟ إن الأسماء هى سمات المسميات تنسب إليها، فإذا قلت: فلان طويل، نسبت إليه الطول، وإذا قلت: قصير، نسبت إليه القصر، وإذا قلت: أبيض أو أسمر أو أشقر نسبت إليه صفات معينة. فإذا قلت الدنيا فما معناها؟ معناها: الدنو أو الدناءة، وهنا يختلف المعنى فلا يمكن أن توصف الدنيا بالدنو المطلق؛ لأنك إذا أخذتها على أنها الطريق الموصل لنعيم الآخرة فهى أول درجة فى هذا الطريق، إذن.. فهى الدرجة الأدنى التى تصعد منها إلى ما هو أعلى.

إذن.. فالذى يريد أن يجعل الدنيا بمعنى الدنو والدناءة على إطلاقها نقول له: لا، فهى درجة دنيا للدرجات العالية فى الآخرة، وهى دنيا لأن هناك حياة عليا فيها الخلود، إذن.. فما دامت هناك دنيا فهناك عليا، فلابد لكى تصعد إلى العليا أن تصعد السلّم من أوله، فلا يمكن أن تصل إلى أعلى الدرجات دون أن تبدأ بالدرجة الدنيا.

عمرك لا يقين فيه، والحياة الدنيا هى موضوع الدين، فمنهج اللَّه جاء ليحكم حركتك فى الحياة الدنيا بـ «افعل» «ولا تفعل»، وأنت مطالب بأن تتبع منهج

«افعل» «ولا تفعل» فى الدنيا، أما الآخرة فهى جزاء والجزاء على الشىء ليس هو نفس الشىء، وأنت فى الدنيا إما أن تجعلها مزرعة للآخرة فتكون قد أخذت منها المعنى بأنها الدرجة الأولى المؤدية إلى الحياة الأعلى، وإما أن تتمسك بها فتكون قد جعلت كل حظك هو الدرجة الدنيا من الحياة، التى خلقها اللَّه سبحانه وتعالى للإنسان، فهى دنيا فى عدد السنين؛ لأن عمرك فيها قليل قصير، ولا تقل: إن الدنيا عمرها ملايين السنين؛ فدنياك أنت على قدر عمرك فى الدنيا. وعمرك فيها مظنون ليس فيه يقين، فأنت لا تعرف ولا تستطيع أن تعرف الزمن الذى ستقضيه فى الدنيا لأنك قد تعيش فيها شهراً أو شهرين أو سنة أو بضع سنين، يقيناً لا تعرف. فمفارقتك للدنيا ليست فى يدك، ولكنها فى يد اللَّه تبارك وتعالى وهو لم يجعل لعمرك فيها زمناً معروفاً لك، ولم يجعل لمفارقتك لها سبباً معروفاً لك وذلك على عكس الآخرة فحياتك فيها يقين لأن اللَّه سبحانه وتعالى أخبرك أنك ستخلد فيها لا تموت أبداً، وهكذا تعلم يقيناً أن حياتك فى الآخرة أبدية، ونعيمك فيها أبدى، ولذلك فإننا نعرف أن الآخرة دار يقين. والذين يفترون على اللَّه الكذب لا يظنون أنهم ملاقوه ولا أن هناك يوماً للبعث يحاسبون فيه؛ ولذلك فكل تصرفاتهم هى أن يأخذوا كل ما يستطيعون من متاع فى هذه الحياة الدنيا، وبكل الوسائل؛ ذلك لأنهم يعتقدون أنه ليس هناك شىء بعد ذلك، فيأتى الحق سبحانه وتعالى ويخبرهم بالحقيقة: ﴿مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾.

أى لن يتمتع أحد فى الدنيا ويظلم ويفعل كل ما يغضب اللَّه، ثم بعد ذلك يُترك، بل سيرجع إلى اللَّه ولن يفلت منه.

ولكن لماذا ذكر الحق سبحانه وتعالى هذه الحقيقة؟ لأن الإنسان قد يمتنع عن فعل أعمال كثيرة إذا تذكر عاقبة هذه الأعمال، فإذا رأيت مثلاً ولدًا صغيرًا يلعب بالكرة وأنت تريد أن تضربه وتأخذها منه، فإذا قيل لك: إن هذا الولد له أخ كبير قوى سيأتى إليك ويضربك ويستعيد الكرة. فإنك ستتراجع عن أخذ الكرة من الولد الصغير. واللَّه سبحانه وتعالى يريد هنا أن يذكر هؤلاء الذين يريدون متاع الدنيا بأى ثمن ويفترون على اللَّه الكذب يريد أن يذكرهم بأنهم سيعودون إلى اللَّه سبحانه وتعالى لعلّهم، يتراجعون عما هم فيه؛ خوفاً مما سيحدث فى المستقبل، ثم يكمل اللَّه تبارك وتعالى لهم الصورة فيقول: ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٧٠].

❁❁❁